مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

منطق التخييل

محمد الشقيف
باحث مغربي

2023

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 11 شتنبر 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

منطق التخييل

موجز البحث:

ذهب إيمانويل كانط إلى أن المنطق وُلد كاملا مع أرسطو، وأن المعلم الأول لم يترك للاحقين ما يمكنهم إضافته إلى «العلم التحليلي»، ولا هو أنشأ فيه ما يمكن لهذا «العلم» الاستغناء عنه. ولكن قلم صاحب الفلسفة النقدية لم يجف حتى ذهب، في معرض دحضه للحجة الأنطولوجية على وجود الله، إلى دعوى منطقية-أنطولوجية خاصة هي أن «الوجود ليس محمولاً حقيقياً». والحق أن الوصل بين هاتين الدعوتين (التاريخية من جهة، والمنطقية-الأنطولوجية من جهة أخرى) يفضي إلى مفارقة لا تُحل إلا بالتنازل عن أحديهما أو بتأويل الأولى تأويلا يطوعها لتتوافق مع الثانية. فإن العائد إلى «**الأورغانون**» أو إلى مؤلفات شراحه (إن استثنينا ما ذهب إليه الفارابي في جوابه عن السؤال السادس عشر من رسالته «**جواب عن مسائل سئل عنها**») لا يجد التسليم الضمني بأن الوجود محمول حقيقي للأشياء يجب تمييزه عن ماهياتها فحسب، بل يجده قولا صريحا يتكرر في غير ما فصل من فصول الكتب المنطقية لأرسطو أو من شروح اللاحقين له وتلخيصاتهم وغريها.

ولكن القيمة التاريخية لما ذهب إليه كانط، هي أنه أثار انتباه المناطقة إلى سؤال «هل الوجود محمول؟» وإلى الأسئلة المرتبطة به، أنطولوجية ومنطقية ودلالية، وفي مقدمتها: ما هو الوضع المنطقي للموضوعات غير الموجودة عامة ولموضوعات التخييل خاصة؟ وكيف يمكننا الحديث عن هذه الموضوعات بصورة مفيدة للمعنى؟ هذا ما يحاول هذا البحث بيانه؛ وذلك استكمالا للقول في ما كنت بدأته في مقال سابق بعنوان «**المنطق المعاصر والمسألة الأنطولوجية**».

مقدمة

تحت وطأة العجز الذي أضحى يُظهره المنطق الكلاسيكي ثنائي القيمة أمام المشكلات الدلالية والمنطقية التي تذكيها بعض ظواهر اللغة الطبيعية، خاصة غموض حدودها، كتب برتراند راسل Bertrand Russell (1872-1970) أن المنطق جَنةٌ بحق، ولكنها جنة السماء مخيبةٌ ظنونَ من يعيشون على الأرض، وعلى الإنسان أن يحسم اختياره، لئلا يظل مترنحا بين حاجات حياته اليومية من جهة ومقتضيات المنطق من جهة ثانية، وليس للأخير سوى أن يتنحى فاسحا الطريق لمجرى الحياة الاجتماعية وسيل وقائعها المتدفق؛ فهي أَولى بهذه الأرض وأحرى بالإنسان الذي يحيا عليها.[1]

ولئن ظهر في هذا الإقرار إذعان للحقيقة التي ما فتئ العقدان الأولان من القرن العشرين يبشران بها، وهي أوان ميلاد أنساق منطقية جديدة منحرفة عن مبادئ النسق العتيد أو موسِّعة لها على الأقل، فإنه لم يكن دعوة إلى التخلي عن **المنطق** بإطلاق[2]؛ فليس من شأن ذلك أن يدمِّر العلوم الصورية ويلقي بظلال الشك على بُنى الفكر الخالص فحسب، بل يمكنه أن يهدم الآلة التي يحتاجها كل علم؛ فلئن كنا نعاند أرسطو في بعض مبادئ نسقه وننازعه عددا من قوانينه، فإننا لا ننازعه قيمة **المنطق** (بألف ولام التعريف) والضرورة التي تؤوينا إليه، فهو آلة العلم أول الأمر وآخره، قوامه وعماده. لقد كانت دعوةً إلى تنازل المنطق الكلاسيكي عن كرسي البارادايم طالما أصبح عاجزا عن حماية نفسه من التهديدات المحدقة به وعن الاستجابة المُرضية للأزمات التي لم تزل تنشأ من داخله، وبالمقابل فقد كان تعبيرا عن الحاجة إلى صور جديدة للمنطق تُظهِره كآلة طبيعية تطاوع فكر الإنسان ولغتَه دون أن تُحوجهما إلى نظام معياري آخر غيرها. فأي إنسان هذا الذي لم تعد تُرضيه معيارية المنطق الكلاسيكي؟ وأي حياة إنسانية هذه التي غدت تنكر على هذا النسق حقه في السيادة على فكر الإنسان ولغته؟

حتى لو قصرنا النظر على الحياة الفكرية للإنسان دون ما سواها من ضروب معيشه، فليس في هذه الحياة الرياضياتُ و«العلوم الدقيقة» فحسب، بل فيها العلوم الاجتماعية والفلسفة والأدب والفنون بمختلف فروعها أيضا، وليس لسان هذه الحياة اللغةُ الصناعية التي يُلجأ إليها في هذه العلوم (على علاَّتها)، بل هو اللغة الطبيعية التي يتقوم بها الفعل والتفاعل الاجتماعيين بمختلف صورهما. يصعد الممثِّل على خشبة المسرح ويطلب من زميلته في العمل الفني الزواج منها ويعدها بتكريس ما بقي من حياته لخدمتها، فتخبره من جهتها بقبول عرضه، وبين الحضور زوجا الممثلين الحقيقيان لا ينزعجان مما يُعرض أمامهما لأنهما يعلمان أنه

1- Bertrand Russell, “Vagueness”, *Australasian Journal of Psychology and Philosophy*, vol. 1, no 2 (1923), 84-92, p. 88

2- اتهم بعض المعاصرين فيلسوف الذرية المنطقية بالتخلي التام عن المنطق عقب نشر مقاله «في الغموض» سنة 1923، كما زعموا تهيئته الطريق لأفكار جديدة مدمرة للعلوم المعيارية جديدة، وفي مقدمة هؤلاء معاصره ماكس بلاك، انظر:

Max Black, “Vagueness: an exercise in logical analysis”. *Philosophy of Science*: Vol. 4, No. 4, Oct. 1937, 427-455, p. 429

غير جدي[3]، أما بقية الجمهور الحاضر فمع أنه يدرك أن ما يقال أمامه **كاذب لا يصور وقائع حقيقية** فهو يجد فيه متعة جمالية تنسيه الحاجة إلى الصدق. وغير بعيد عن قاعة العرض المسرحي يجلس صديقي حمزة في مكتبه مطالعا ملحمة **الإليادة** لهوميروس، وبقدر ما يفيد منها علما بأهم أنماط الفكر التي سادت اليونان القديمة، فهو يستمتع بما يلفيه من خصوبة المخيلة وجمالية فعل السرد كما لا تنفك تأخذه القيم التي تنثرها رواية الأحداث بين الفينة والأخرى، رغم **غرابة** الوقائع، بل واستحالة تمثلها أو تصور وقوعها، ومع ذلك فإن هذا القارئ المستمتع لا يتهم هوميروس بتزوير التاريخ كما لا يضع أقواله في خانة الكذب والافتراء. وهذا أنا أتصفح **محاورة الجمهورية** لأفلاطون، وبقدر ما أجد فيها من مغالطات يوقِع فيها سقراط محاورَه وما يقع منه عليه من سفسطة، وهو يتحدث عن **مُثل** الحق والخير والجمال في وحدتها وفي تجسداتها المختلفة في «عالم النُّسخ والأشباح»، وما يرافق ذلك من حديث عن **كليات** اجتماعية (كالدولة والحكومة والمجتمع) وأخلاقية (كالعدالة والسعادة والظلم) وجمالية (كالفن والجمال والقبح) ومعرفية (كالحقيقة والوهم والكذب)، فإني لا أضع أفلاطون بين زمرة الكاذبين مع علمي أن جل عناصر الحوار من بنات عقله فضلا عن أن تلك الكليات غير قائمة في العالم الفيزيائي، فلا أقول حتى إن مضمون محاورته خالٍ من المعنى.

ولكن، إن لم يكن بالكذب والخلو من المعنى نبتُّ في هذه الأشكال من القول، فبأي مفاهيم نتناولها؟ سألتفت في هذا المقال إلى الحالتين الأوليين فحسب، مُنَقِّرا عن الوضع المنطقي للأقوال التي تنهل من عالم التخييل وعن الوضع الأنطولوجي للكيانات المؤلف منها هذا العالم، على أني كرست مقالا آخر للحديث عن الكليات والموضوعات غير الموجودة عامة.[4]

1- من أنطولوجيا النص التخييلي إلى دلاليات الألفاظ المستعملة فيه

يثير القول التخييلي مشكلات أنطولوجية وأخرى دلالية ومنطقية، سواء اتصل الأمر بحدوده ذاتها أو بعبارات قرائه ممن صار موضوعا لأحاديثهم، في مسار السرد القصصي أو في سياق التقييم النقدي أو التداول الاجتماعي. جاء في **مغامرة الحيَّة المنقَّطة** من **مغامرات شيرلوك هولمز** للكاتب الأسكتلندي كونان دويل Conan Doyle أنه «في وقت مبكر من شهر أبريل عام 1883، عندما كان شيرلوك هولمز ومساعده الدكتور جون واطسون يقيمان سويا في شقة هولمز في المنزل رقم 221 ب في شارع بيكر، استيقظ الطبيب الطيب

3- يمثل هذا الاصطلاح جزءا من نظرية أفعال الكلام مثلما أنشأها الفيلسوف البريطاني جون لانشاو أوستين J. L. Austin وطورها فلاسفة آخرون في مقدمتهم الفيلسوف الأمريكي جون سيرل J. R. Searle حين حديثهم عن فعل الكلام الجدي serious speech act بما هو فعل كلام أريدَ به الإنجاز الناجح للفعل الرامي إليه القول، والمتحققة فيه الشروط الجوهرية لكل فعل كلام، وأهمها شرط صدق النية إضافة إلى الشروط الخاصة بكل فعل والمميزة له عن غيره. يكون فعل الوعد مثلا فعل كلام جدي عندما يحضر لدى المتلفظ بعبارة الوعد قصد إنجاز الفعل المستقبلي الموعود به كما يحضره قصدُ إبلاغ الموعود له بالتزامه بإنجاز الفعل الموعود به. ومن أجل مزيد استيضاح لهذه المسألة ومعها نظرية أفعال الكلام يمكن العودة إلى:

John R. Searle: Les actes de langage, Essai de philosophie du langage, traduction de Hélène Pauchard, Hermann, Paris, 1972, p. 98-104

4- محمد الشقيف، «المنطق المعاصر والمسألة الأنطولوجية»، **مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث**، غشت 2023

ذات صباح ليجد المخبر السري العظيم واقفا، وهو يرتدي ملابسه الكاملة بجوار سريره»، [5] ولم تكن مفاجأة الأصدقاء قبل المجرمين الصفة الوحيدة لشيرلوك هولمز، بل ما أن نشر دويل قصته الأولى سنة 1887 حتى أصبح يُضرب به المثل على حدة الذكاء ودقة الملاحظة وسرعة الاستنتاج وطغيان الاغترار بالذات، وليس غريبا أن غدا أشهر المحققين على الإطلاق، الحقيقيين منهم والتخييليين، حتى ظن الكثيرون أنه شخص حقيقي من لحم ودم يجوب أنحاء عالمنا الواقعي. وإذ تُؤوينا هذه الحقيقة إلى الإقرار بالقيمة الأدبية والفنية لأعمال السير آرثر كونان دويل، فهي تضعنا أمام ضرورة التساؤل عن الوضع الأنطولوجي للكيانات التخييلية[6] المتقوِّمة بها حبكاتها، شخصيات وأشياء وأحداث وأزمنة وأمكنة وغيرها، فمن هما (أو ما هما) شيرلوك هولمز والدكتور جون واطسون؟ هل وُجد منزل برقم 221 ب في شارع بايكر من لندن سنة 1883؟ أهذه كيانات حقيقية؟ أهي أجزاء من عالمنا الواقعي، بطريق أو بآخر، أم هي تنتسب إلى عوالم أخرى، أم إنها ليست من الكيانات في شيء؟ إن كانت كيانات، أهي مثل برتراند راسل وساعة البغ بن وحافلات لندن الشهيرة؟ وبشكل عام، هل نكون أمام أنطولوجيا عادية إزاء الكيانات التخييلية أم لا بد أن نكون إزاء أنطولوجيا غير عادية، أنطولوجيا موسَّعة مثلا؟ أما على المستوى الدلالي، فإن القول التخييلي يضعنا أمام ضرورة التساؤل عن وظائف الألفاظ المستعملة فيه؛ فهل اللفظ «جون واطسون» اسم بمنزلة بقية الأسماء؟ أهو اسم علم مثل «كونان دويل»؟ هل يحيل على شخص أو شيء مخصوص في العالم؟ أَيُفيد معنى يُلتقط ما أن يُفهم مسموعه؟ أو هل يكون له أحدهما فقط دون الآخر، المعنى أو الإحالة؟ وبشكل عام ما هو الوضع الدلالي للقول التخييلي؟

أ- شيرلوك هولمز أكثر كينونة من المربع الدائري!

عندما يثار السؤال عن القول التخييلي، أنطولوجياً أو دلالياً، فإن أول نظرية تشدُّ الناظر في الغالب تؤوب إلى الفيلسوف والرياضي النمساوي أليكسيوس مينونغ Alexius Meinong (1853-1920)، تلك التي تعرف بـ«**نظرية الموضوعات**». وليس ذلك من قبيل الصدفة، فالحق أنها أقدم النظريات القائمة حول المسألة وأشهرها، وأكثرها انتشارا بين المعاصرين ممن تناولوا مشكلات الخطاب التخييلي وأكثرها تأثيرا فيهم، بطريقة أو بضدها. لذلك يمكننا تصنيف الاتجاهات النظرية التي التفتت إلى مسألتنا إلى اتجاهات ثلاثة تبعا لعلاقتها بالنظرية المذكورة: أ- مذهب مينونغ والنظريات التي نشأت على أساسه، وأشهرها نظرية تيرانس بارسونز في الموضوعات غير الموجودة. ب- الموقف التحليلي المتشبع بالروح الواقعية المحدثة والرافض لـ«نظرية

5- آرثر كونان دويل، مغامرات شيرلوك هولمز، ترجمة علي الجوهري، دار الطلائع للنشر، القاهرة، 2001، ص. 7

6- أميز هنا بين ثلاثة أنواع من الكيانات التخييلية Fictional entities وسأشتغل بها جميعا على أن ما سأركز عليه أكثر في هذا المقال هو النوع الأول: أ- الكيان التخييلي الأدبي، وهو كل كيان ورد ذكره في نص تخييلي معين، رواية كان أو قصة قصيرة أو مسرحية أو قصيدة ملحمية أو غيرها من الأجناس الأدبية، بحيث يكون من إبداع صاحب النص التخييلي، مثل شخصية «هاملت» لشكسبير، وشخصية «شيرلوك هولمز» لكونان دويل. ب- الكيان التخييلي الأسطوري، وهو كل كيان محور قصص وروايات شعبية أو ثقافية أو دينية أو غيرها في مجتمع معين، يكون من إبداع المخيال الجماعي للأمة غالبا، ولا يُنسب إلى شخص (مبدع) معين، وربما ساد الموروث الثقافي لأكثر من شعب، مثال ذلك شخصية «زيوس» في الأسطورة اليونانية، وشخصية «جوبيتر» في الأسطورة الرومانية. ج- الكيان الخيالي imaginary entity، وهو كل كيان ينسجه شخص من خياله المحض لسبب أو لآخر، كأن يحدث وأنا أناجي نفسي أن أخلق شخصية خيالية أحاورها، أو يتخيل المرء أن هناك «ملكا لفرنسا» يحكمها اليوم أو يتخيل شخصا غير مرئي أو ما شابه هذا.

الموضوعات» رفضا جذريا، وتمثله أوضح تمثيل نظرية راسل في الأوصاف وفلسفته الذرية المنطقية عامة. ج- نظريات نشأت في كنف التقليدين التحليلي والواقعي، ولكنها وقفت منهما موقفا مُراجعا، كما انطلقت من مذهب مينونغ محتفظة بأهم مبادئه، ولكنها خطت منه خطوات ملحوظة، وأشهرها نظرية العوالم الممكنة عند ديفيد لويس.

في سنة 1904، نشر أليكسيوس مينونغ مقاله الشهير المعنون بـ«نظرية الموضوعات The theory of Objects»، وكانت دعواه الأساسية هي أننا بحاجة إلى **علم جديد** يكون موضوعه هو **الموضوعات بإطلاق**، أو **الموضوعات بما هي موضوعات**، أو **الموضوعات ككل** Objects، [7] نستدرك به ما فوَّتتْه علينا آفة ملازمة لطبيعتنا ومنتشرة في كافة علومنا، هي اهتمامنا الشديد بالواقع وتحيُّزنا للعيني وافتتاننا بكل ما يوجد وجودا فعليا يُرى رأي العين مقابلَ إنكارنا المتناقض لكلّ ما سواه، وعدم إقرارنا به **موضوعا للعلم**، رغم أننا لا ننفك نتمثَّله ونفكِّر فيه (في مستوى التصور)، ونحيل عليه بألفاظ لغتنا (في مستوى القول)، ونصدِّق ما يُعتقد ويُقال حوله أو نكذِّب (في مستوى الحكم)، ونرتِّب عليه نتائج أو ننازع في صدقها (في مستوى الاستدلال). ولئن كان تاريخ الأفكار ميَّالا للاحتفاظ بالنظريات الثورية أكثر من غيرها، فلقد أحدثت نظرية مينونغ ثورتها الخاصة باتخاذها شعارا لبِس لباس المفارقة: «هناك موضوعات يصدق عليها القول إنها لا توجد».[8]

لقد كانت دعوةً إلى توسيع دائرة الموضوعات، لتشمل كل ما تتوجه إليه **قصديتنا** بشتى صورها (حُكما كانت أو تذكُّرا أو تخيُّلا أو رغبة أو خوفا أو غيرها)، موجودا كان أو غير موجود. ولكنها لم تكن دعوة لأنْ يخلُق العلم المنشود موضوعات جديدة، فالحق أن كل العلوم القائمة ومعها كل أنماط التمثيل (معرفية كانت أو آلية) بقدر ما اتخذت من الموجودات في الزمان والمكان موضوعاتٍ، لم تزل تؤْثِر التوجهَ إلى كيانات مقيمة خارج عالمنا الفيزيائي؛ لا نتحدث عن الميتافيزيقا وعلوم اللاهوت والأخلاق والجمال والأدب وعلم النفس وغيره من العلوم الاجتماعية فحسب، بل نقصد قبل ذلك الرياضيات والفيزياء وما ماثلها من العلوم الطبيعية. ولكنها توجهت إليها دائما بكثير من «النفاق» غذَّاه أحيانا الاعتقاد أن **ما لا يوجد ليس شيئا** كما عزَّزته في أحيان أخرى قناعة بأن هذه العلوم قاصرة عن الاضطلاع بمهمة النظر في الموضوعات الخالصة. وفي الحالتين معا، ولِكِلي الاعتبارين، تظهر الحاجة إلى علم يُقتدر به على النظر في الموضوعات بعيدا عن اعتبارات الوجود واللاوجود.

وربما كان بإمكاننا تركيز نظرية الموضوعات عند مينونغ في دعويين أساسيتين: الأولى **أنطولوجية**، وتقضي أن هناك موضوعات لا توجد، والثانية **دلالية**، وتفيد أن هذه الموضوعات قابلة مبدئيا لأن يقع عليها حمل صادق. تستند الأولى إلى مبدأ أعم هو أن المجموع الكلي للموضوعات يمتد إلى أبعد بكثير من حدود ما هو

7- Alexius Meinong, “The theory of objects”, (translated by Isaac Levi, D. B. Terrell, and Roderick M. Chisholm), In: *Realism and The Background of Phenomenology*, ed. Chisholm, Roderick M. Illinois: The Free Press of Glencoe, 1960, 76-117, p. 79

8- Ibid., p. 83

واقعي أو عيني أو فعلي، بينما ترتكن الثانية إلى مبدأ أن أحوال الموضوعات وخصائصها وصفاتها مستقلة عن كينونتها.[9] ولكن تسويغ هاتين الدعويين يقتضي أولا رفعَ ما يلوح من تناقضٍ تفصح عنه عبارتيهما، ولا سبيل يبدو إلى ذلك دون مبارحة لبَرِّ المألوف قدوما إلى أرض لم تعهد تضاريسَها التقاليد الأنطولوجية والدلالية على حد سواء. إن التحرر من اعتبارات الوجود واللاوجود لم يغنِ النظرية عن تمييزات أنطولوجية غريبة عن الأدبيات الفلسفية المعاصرة، خاصة تلك المتشبعة بالروح التحليلية الوضعية التي سادت بواكير المنطق وفلسفة اللغة المعاصرين، ومن ذلك تمييزُها في الموضوعات بين **الكائنة** منها و**المفتقرة للكينونة**، وتفريقها في الكائنة بين **الموجودة** (المتحيزة في الزمان والمكان) المتألِّف منها عالمنا الواقعي من جهة، وبين الموضوعات **غير الموجودة** (القائمة لا في محل) المتألِّفة منها عوالم التخييل والمثل وما ماثلها من جهة ثانية.[10] فإذا استقام هذان التمييزان، نزعت **نظرية الموضوعات** رداء المفارقة واستحال معنى دعامتها الأولى أنه «من بين كل الموضوعات بإطلاق هناك موضوعات كائنة وأخرى مفتقرة للكينونة، ومن بين الموضوعات المتمتعة بكينونة هناك موضوعات موجودة وأخرى مفتقرة للوجود». حتى إذا تحصَّل هذا المعنى استقرَّ مفاد الدعامة الثانية عند آخر تابع له هو أنه «بصرف النظر عن وجود الموضوع أو عدمه وعن كينونته أو افتقاره إليها، يمكننا أن ننسب له حالا أو ننفيه عنه فنلحقه به في حكمه صدقا».

ولئن كانت ترجع إلى مينونغ إثارة المشكلات الأنطولوجية والدلالية والمنطقية المتعلقة بالقول التخييلي، فالحق أن نظرَه لم يقع على موضوعات التخييل بتخصيص، بل انصرف في مجمله إلى الموضوعات غير الموجودة بإطلاق، تلك الكيانات التي لا يمنعها عدم وجودها من أن تكون لأفكارنا وأقوالنا ومختلف أشكال قصديتنا بمنزلة الموضوعات المألوفة في العالم الواقعي، [11] غير أنه لا يَعسر استنتاج الحكم الأنطولوجي **لشيرلوك هولمز** من حكم **الجبل الذهبي** أو اشتقاق الحكم الدلالي لـ«بيغاسوس» من حكم «المربع الدائري»، بل إن موضوعات من هذا النوع لَتخدم كأمثلة باراديغمية لنظرية الموضوعات عامة، ولا عجب إن أخذت من اهتمامات الباحثين في هذه النظرية وفي **المنطق الحر Free logic** المرتبط بها نصيب الأسد. ومهما يكن، فقد كان ما قدَّمه الفيلسوف النمساوي من بيان كافيا لِيشار إليه بـ«نظرية مينونغ في القول التخييلي» ولِتقام على أساسه نظريات متباينة تقتسم جميعها مسمى «نظريات مينونغية في القول التخييلي»، منها الكلاسيكي ومنها المتأخر، منها الأنطولوجي ومنها الدلالي والمنطقي، وتعد نظرية تيرانس بارسونز Terence Parsons (1939-2022) أشهر هذه النظريات، دافع فيها عن مذهب مينونغ دفاع المستميت وحاجج بنتائجها ضد تحليلات أكبر خصومه وأقواها حجة، وفي مقدمتهم برتراند راسل.

9- Roderick M. Chisholm, “Beyond Being and nonbeing”, *Philosophical Studies* 24 (1973), 245-257, p. 245-247

10- بعبارة أخرى، فقد ميَّز مينونغ بين مرتبتين في الكينونة being: أولاهما الوجود الفعلي existence المتحيز في المكان والزمان الذي خُصَّت به الكيانات ذوات الأجسام، وثانيتها القيام subsistence خارج المكان والزمان الذي خُصَّت به المجرَّدات المستغنية كينونتها عن تجسُّدها. وإذ نقرُّ أن الموجود ليس إلا جزءا من ما هو كائن، يبقى أن نزيد أن الكائن ليس إلا عنصرا من مجموعة الموضوعات؛ فإن **المربع الدائري** ليس كائنا ولا بحال من الأحوال كما يستحيل أن يكون، ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون موضوعا.

11- Meinong, The Theory of Objects, op. cit., p. 79

سعيا منه إلى رفع المفارقة البادية من عبارة مينونغ، وتثبيتا للعمادين الأساسيين الراسية عليهما نظريته، اجتهد بارسونز في التدليل على اتساق الدعوى القاضية أن **هناك موضوعات لا توجد**، ولم يلفِ إلى ذلك سبيلا أولى من إبطال زعم الترادف بين اللفظين «هناك there is» و«يوجد there exist»، فإن التناقض لا ينبثق إلا بين يدي من يقيم هذا الترادف؛ إذ تصير عنده الدعوى المذكورة مكافئة منطقيا للزعم أنها **توجد أشياء لا توجد**، وهو تناقض واضح لا ينازع في ذلك عاقل. وإن فكَّ تطابق معنيي اللفظين تكفيه العودة إلى سياقات استعمالهما العادي؛ صحيح أننا كثيرا ما نتوسَّل بالواحد منهما لتمثيل المعنى الذي نمثِّله بالآخر، ونلتمس من هذا الفكرةَ ذاتها التي ننقلها بالآخر، ولكن وقائع الاستعمال نفسها تشهد بتباين معنييهما في سياقات أخرى عديدة. لا يحتاج المرء استعانةً بالقواميس ليدرك غياب الدلالة على الوجود في الزمان والمكان عند القول «**هناك** حصان أسطوري مجنَّح يدعى بيغاسوس»، بينما لا ينازع منازع في حضور تلك الدلالة حين القول «**يوجد** في إسطبلي حصان مجنح»، ونتيجة ذلك أننا لا نتردد في الحكم بصدق القضية الأولى وبكذب الثانية.

إذا حصرنا نظرنا في المستوى الدلالي، ربما يكون التجرُّد من الإحالة على المكان حين استعمال لفظ «**هناك**» أمرا صعبا، فهذا ظرف مكان أول الأمر وآخره. ولكن العتبة الدلالية قلَّمَا تستنفد كامل معنى الكلمة؛ فدأبُ المتكلمين تجاوزُها بتضمين القول إحالةً على ما يقوم مجردا من المكان (الفيزيائي على الأقل، وإلا فعوالم التخييل والأسطورة ليست خلوا من زمان ومكان مفترضين)، ولا يفشل في التقاط مقاصدهم متلقٍّ مستبصر. عندما أقول «هناك حصان مجنح أسطوري يدعى بيغاسوس» أو «هناك شخصية تخييلية تسمى شيرلوك هولمز»، لا أنتظر أن يُفهم من القولين أن الكيانين المذكورين يوجدان وجودا عينيا في عالم الواقع، إنما أقصد أنهما يتمتعان بمستوى أدنى من الكينونة؛ فأحدهما قائم في عالم الأسطورة بينما ينتمي الآخر إلى عالم التخييل الأدبي. إن الاعتداد ببيانات السلوك التداولي لجماعة المتكلمين لَيزكِّي «الدعوى القاضية أن **هناك أشياء لا توجد**، ويشهد أنها على قدر من الصلابة، حيث لا يمكن دحضها بمجرد زعم عدم اتساق عبارتها».[12]

وليس ما حمل بعض الناس على ممانعة هذه الدعوى، حتى أنكروا على كيانات التخييل انتماءها إلى قائمة الموضوعات الحقيقية هو استغلاق عبارتها فحسب، ولا هو شيوع تأويلاتها الخاطئة بين القراء ممن انساقوا وراء تحليلات فلاسفة يحاجُّون على نحو بليغ وقد جعلوها في مرمى انتقاداتهم (كبرتراند راسل وويلارد كواين) فقط، بل يرجع ذلك أيضا إلى مصادرة أولئك على اختزال معنى «**الموضوع**» في معنى «**الموجود**» وإغفال ما بينهما من تمايز. لذلك، ما أن يفهم المرء أن «كل ما يمكن أن يتوجه إليه التفكير إنما هو موضوع، سواء اتصل الأمر بالموضوعات التي تُصورت أو بتلك التي كان ممكنا تصورها ولكنها لم تكن محظوظة بما يكفي لتثير انتباه أحد»، [13] فإنه لا ينازع القولَ الذي يسند لشيرلوك هولمز فعلاً أو يعزو لبيغاسوس خاصيةً لا أن يحسِبهما

12- Terence Parsons, “Are there nonexistent objects?”, *American Philosophical Quarterly*, Vol. 19, No. 4, (October 1982), p. 366

13- Terence Parsons, “A prolegomenon to Meinongian Semantics”, *The Journal of Philosophy*, Vol. 71, No. 16 (Sep. 19, 1974), 561-580, p. 561-562

موضوعين حقيقيين فحسب. أنَّى لشيرلوك هولمز أن يكون موضوعا وهو ليس شيئا!؟[14] ينمحي هذا الانزعاج ما أن يُدرَك أننا لا نقصد بـ«**شيرلوك هولمز موضوع**» أكثر من أنه في الحدود الدنيا **يمكننا التفكير فيه أو تخيُّله أو التشبُّه به أو الحديث عنه**.

وثمة دليلان آخران يدعمان المنظور القاضي أن كيانات التخييل موضوعات حقيقية وإن كانت مفتقرة للوجود: مفاد الأول أن هذه الكيانات **تتصرف سببيا** في عالمنا الواقعي، وربما كان أثر ذلك يفوق آثار ما تفعله كيانات واقعية، فكيف لِما ليس شيئا أن يفعل ذلك؟! وأما الدليل الثاني، فهو أننا لم نزل نعتقد في صدق أفكار تستلزم كينونة تلك الموضوعات، بل ولم نزل ننشئ استدلالات لا يُنازَع في صحتها وقد افترضت تلك الموضوعات افتراضا. إننا نقرُّ للكثير من الأعمال الأدبية بتأثيرها في أفكار من توجُّه إليهم وبِوقعها على سلوكاتهم، ومن ذلك أن الصورة التي يقدِّم بها الكاتب **بطلَ** قصته قد تفعل بالغ الفعل في جمهور المتلقين. لنأخذ مثلا، فقد تابعنا في المغرب خلال شهر رمضان من عام 2022 كيف أثار تقديم شخصية درامية سُميت «**الشيخة**» جدالا عنيفا بين أطياف المجتمع، بعد أن أبدى داعيةٌ (رجل دين) امتعاضه من الصورة التي قُدِّمت بها معتبرا أنها تروم التطبيع مع تصور للمرأة لم يزل يرفضه المغاربة قاطبة، ولم يكن ذلك كفيلا بانخراط عامة الناس في مناقشة مفهوم «**الشيخة**» وما يرتبط به من تمثلات اجتماعية وثقافية وتاريخية، بل التحق بالنقاش مثقفون وسياسيون وحقوقيون وغيرهم. فكيف لكيان زائف أن يُحدث كل هذا التفاعل الاجتماعي؟ كيف لِما ليس شيئا أن يتصرف سببيًا في عالمنا الواقعي؟

وليست **المسألة الدلالية** في النص التخييلي بمستقلة عن الاعتبارات الأنطولوجية المتصلة بكياناته، فلئن كان يضعنا في مستوى أول أمام سؤال المعنى الذي تكون به هذه الكيانات موضوعات، فإنه يلقي بنا في مستوى ثان أمام أسئلة المعنى والإحالة والصدق في منطوقاته بافتراض عدم وجود تلك الكيانات. وبتقرير نظرية مينونغ في أنطولوجيا التخييل، تتقرر نظريته الدلالية باللزوم؛ فعندما أقول «الدكتور جون واطسون هو المحقق الرئيس في روايات كونان دويل المشهورة وشيرلوك هولمز مساعده»، أستعمل اللفظين «شيرلوك هولمز» و«جون واطسون» كاسمي علم **أحيل** بكل واحد منهما على شخصية تخييلية **مخصوصة**، لا يمنعني من ذلك عدم وجودها في الواقع. ومن أدلة ثبوت الإحالة لكل منهما أنه لن يجادل قارئ لأعمال الكاتب الاسكتلندي في كذب قولي أعلاه، وما يكون له أن يفعل لولا اعتقاده أن هناك موضوعين حقيقيين باسمي علمين متمايزين لا تصدق الإحالة على الواحد منهما باسم الآخر. ما لم نقرّ بهذه الحقيقة لن نقدر على حمل نصوص التخييل على أي **معنى**، وأقلّ ذلك أن نفهم هذا المقطع الصغير: «قال هولمز بابتهاج: صباح الخير يا سيدتي، أنا شيرلوك هولمز، وهذا هو صديقي ومساعدي الدكتور واطسون».[15]

14- هكذا عبَّر راسل عن انزعاجه من نظرية مينونغ، في صورة من صور هذا الانزعاج.

15- كونان دويل، مغامرات شيرلوك هولمز، ص. 8

هنا تظهر الحاجة إلى تمييز أقامه تيرانس بارسونز بين فشل الإحالة من جهة، والإحالة على موضوعات غير موجودة من جهة ثانية، موضوعات التخييل مثلا؛ إذ لا يمكننا الإقرار بالوظيفة الدلالية لنصوص التخييل ما لم نذعن بالحقيقة القاضية أن من ألفاظ اللغة ما يحيل على موضوعات موجودة، ومنها ما يحيل على موضوعات غير موجودة (تخييلية مثلا)، ومنها ما يخفق في الإحالة على التمام.[16] فأنا أنجح في الإحالة على موجود عندما أخبر عن **كونان دويل**، وأفشل في ذللك ما أن أتكلم عن **ملك فرنسا الحالي**. أما عندما أحدِّث عن **فيكتور فرانكنشتاين**، فإني أخفق في الإحالة على شيء موجود مقابل نجاحي في الإحالة على شخصية تخييلية. وبيِّنة ذلك أن الاسم «فيكتور فرانكنشتاين» قد يشغل حيز الموضوع في قضايا صادقة مثله مثل الاسم «كونان دويل»؛ وذلك ما لا يُقتدَر لـلفظ «ملك فرنسا الحالي»؛ فبينما تكذب القضية «كونان دويل فيلسوف ألماني»، وتصدق القضية «خلق فيكتور فرانكنشتاين وحشا قاتلا أودى بحيوات جل أقربائه»، فإن القضية «ملك فرنسا الحالي أصلع» غير صادقة ولا كاذبة؛ لأن لفظ الموضوع فيها لا يحيل على شيء من عالم الواقع ولا من عالم التخييل. وحاصل ذلك أنه بينما يمكننا إدراج «كونان دويل» و«فيكتور فرانكنشتاين» في خانة أسماء الأعلام وإلحاقهما بها في أحكامها، لا يُحسب «الملك الحالي لفرنسا» اسما ولا بحال من الأحوال.

أما العلة الثانية في نجاح فعل الإحالة في القول التخييلي، فهي إمكانية إبدال الاسم في القضية بلفظ مطابق له في الإحالة دون أن يغيِّر ذلك من القيمة الصدقية للقضية شيئا. وهكذا، يسعني تعويض اسم العلم «شيرلوك هولمز» في القضية «كان شيرلوك هولمز يحب التباهي بذكائه» بالوصف المحدّد «بطل روايات كونان دويل» لأقول «كان بطل روايات كونان دويل يحب التباهي بذكائه» دون أن يمسَّ ذلك صدقَ القضية الأصلية في شيء. والنتيجة، سواء توجهَت قصديتُنا إلى عالم الواقع أو إلى عالم التخييل، وسواء كانت الإحالة بأسماء أعلام أو بتعبيرات وصفية محددة، يجب أن نُبقي قِبل ناظرنا أن الإحالة على موضوعات التخييل تختلف تماما عن فشل الإحالة.[17]

إن دلاليات القول التخييلي مثلما يصورها بارسونز دلاليات طبيعية ترتكن إلى بيانات السلوك اللغوي حين التداول؛ تستند إلى الطريقة التي يستخدم بها الناس ألفاظ التخييل، وإلى الاعتقادات التي ترافق استعمالهم لهذه الألفاظ، وإلى السلوكيات التي تلازم كل ذلك. وليس يخفى في أي لسان أن الناطقين به يتصرفون حين الخوض في التخييل كما لو كانوا **يحيلون حقا** على أشخاص وأشياء وأمكنة وأزمنة وأحداث حقيقية. فإن كان لهذه الحقيقة أن تصلُح لشيء، أولى لها أن تشهد على أن الإحالة على عوالم التخييل وكياناتها تختلف كثيرا عن الفشل في الإحالة على أي شيء. والنتيجة، إما أن نخضع للحقيقة التداولية فنعترف لتلك العوالم بأصالة موضوعاتها، ونعدَّ الألفاظ الدالة عليها أسماء أصيلة، ونحسبَ ما تقوم به هذه الأسماء إحالات حقيقية، وإما

16- Terence Parsons, “Referring to nonexistent objects”, *Theory and Decision* 11 (1979), 95-110, p. 95

17- Ibid., p. 95

أن نحكم على أنفسنا بالشذوذ عن الطريقة التي يفكر بها الناس ويستخدمون ألفاظ لغتهم ويتصرفون تجاه ذواتهم والآخرين ما أن يهمُّوا بالحديث عن هذه الموضوعات.

ب- لا تخلق المخيلة واقعا!

كان غوتلوب فريجه Gottlob Frege (1848-1925) أكثر من زامَن أليكسيوس مينونغ من المناطقة المعاصرين (لم تفصل بين ميلاديهما إلا خمس سنين، ومثلها بين وفاتيهما)، وقد كانت الألمانية لسانهما المشترك، ولكن ذلك لم يكن كافيا لحصول تفاعل مباشر بين الفيلسوفين في مسائل فلسفية ومنطقية ورياضية ودلالية شتى، ومن ذلك تفاعلهما في أنطولوجيا التخييل ودلالياته. وربما دفع هذا بعضَ اللاحقين بلا حرج إلى نفي وجود نظرية فريجية في التخييل، [18] والحق أنه زعم مبالغ فيه قليلا، تُضعفه نظرة سريعة إلى بعض ما كتبه الفيلسوف الألماني، خاصة مقاله المشهور في «المعنى والإحالة Sense and reference».

لا يجد العائد إلى هذا النص صعوبةً في تبيِّن نزعة فريجه الواقعية في نظريتيه الأنطولوجية والدلالية على حد سواء؛ إذ لم يعدّ ما تُحدِّث به من قصص المبدعين وأساطير السابقين موضوعات حقيقية، فلم يرَ للمرء حقا في التماس صدقٍ فيها؛ لأنها لا تُحدِّث بشيء، غير أنها لا تُشتق نظريةٌ فريجيةٌ في التخييل بلا استناد إلى تمييزه المعروف بين **المعنى** و**الإحالة**، فقد وجد أن كل «اسم علم (كلمة كان، أو علامة، أو تأليفا من العلامات، أو تعبيرا) يعبِّر عن معناه، ويحيل على مرجعه».[19] ويقصد بمعنى الاسم **المفهومَ** الفردي المرتبط به والذي يلتقطه كل مُلمّ باللغة التي نُحِت بحروفها، يُفصح عنه للجميع كما لو كان «ملكية مشتركة» للناطقين بتلك اللغة. وأما مرجع إحالته، فهو **الشيء** ذاته المشار إليه به عند استعماله، ولا يُعرف إلا بالتجربة أو الخبر، بيد أن تأكيد الارتباط بين اسم العلم ومعناه وإحالته لا يعني أن المثلث يكتمل على الدوام، فالحال أن أحد أضلاعه قد يغيب في حالات عدة سيما عندما يتصل الأمر بأسماء أعلام لكيانات تخييلية، حينئذ يحضر للاسم معناه بينما تغيب إحالته. لنأخذ مثلا: يفيد الاسم «أوديسيوس» معنى يفهمه كل مطَّلع على الأسطورة اليونانية (فهو ملك إيتاكا الأسطوري، وصاحب مفتاح النصر في حرب طروادة، وضحية لعنة بوسيدون لعشر سنين، إلخ)، ولكن المرء يشتبه في أمر وجود شخص يحيل عليه هذا الاسم إن لم ينكر وجوده تماما. وبالمثل، فإن الأسماء التي تُنحت لموضوعات التخييل هي أسماء مفيدة لمعاني طالما تعبِّر عن مفاهيم أو تصورات فردية قد يفهمها كل من يقرأ نصا إبداعيا، ولكنها تفشل في تمثيل أشياء من العالم الواقعي ومن ثم تخفق في الإحالة على التمام، بما يؤكد عموما أن «التقاط المعنى لا يضمن للمرء وجود مرجع الإحالة».[20]

18- Terence Parsons, “Fregian Theories of Fictional Objects”, *Topoi* 1 (1982), 81-87, p. 81

19- Gottlob Frege, “Sense and Reference”, *The Philosophical Review*, Vol. 57, No. 3 (May, 1948), pp. 209-230, p. 214

20- Ibid., p. 211

وبناء على تفريق فريجه بين المعنى والإحالة، يمكننا التمييز بين أسماء أعلام عادية يجتمع لها المعنى والإحالة normal names وأخرى تخييلية تكتفي بالأول دون الثانية fictional names. وهنا ينبثق سؤال تخفت عنده النزعة الواقعية عند فريجه: كيف نحيط علما بوجود الشيء؟ أتقرير الإحالة للاسم مشروط بتقرير ذلك الوجود؟ عند هذا السؤال تلين نظرية الرجل الدلالية للمقتضيات التداولية وتتَّسع المحدِّدات الأنطولوجية فيها للاعتبارات الإبستيمولوجية، فلا تَشترط إحالةَ الاسم بأكثر من **افتراض** وجود الشيء المحال عليه.[21] فإن كان ذلك الوجود يتقرر بيقين تام في كثير من الأحيان، فإنه يعسر التحقق منه أو يستحيل في أحيان أخرى.

لا يساورنا شك حيال مرجع لفظ «الأرض»؛ لأن الحس يمدُّنا بخبر وجوده قبل الدليل العلمي، ولكن هذا اليقين قد يغيب حين الحديث عن **الثقوب السوداء** التي لا وقع عليها حس ولا قدَر على تصوُّرها عقل ولا تقرر وجودها بدليل علمي قاطع، غير أن انتفاء هذا اليقين غير مانعٍ الحديثَ عنها شريطة أن «نفترض مقدَّما مرجع إحالة للاسم الذي نستعمل».[22] قد يكون افتراضنا خاطئا، وكثيرا ما يحدث ذلك، ولكن يجب أن يقَرَّ في القصد افتراضُ ذلك الوجود وإلا وقعنا في مفارقة الإحالة على الشيء مع الاعتقاد في عدم وجوده. لذلك قد نذهب إلى أن الكثير من أحكامنا **القطعية** في ظاهرها النحوي **شرطيةٌ** في بنيتها المنطقية، فالصيغة المنطقية الضمنية للحكم العلمي «أقرب ثقب أسود إلى الأرض يبعد عنها بـ1600 سنة ضوئية» هي: «بافتراض وجود الثقوب السوداء، فإن أقربها إلى الأرض يبعد عنها بـ1600 سنة ضوئية».

أما عندما تنصرف كلماتنا إلى أوديسيوس وشيرلوك هولمز وما ماثلهما من كيانات تخييلية، فإننا نفترض عكس الافتراض السابق؛ نفترض مقدَّما عدم وجود مرجع إحالة الإسم (ولا نقول إنه يحيل على موضوع غير موجود)، فنقف عند عتبة المعنى ولا نطلب أكثر منه، وكأننا نقول للمخاطب: «لا تطلب أكثر من معنى الاسم». على هذا النحو تُنزل أسماء التخييل منزلةَ بقية الأسماء وتُلحق بها في أحكامها في إفادة المعاني، ولكنها تُستثنى من تلك الأحكام بما هي مفتقرة للإحالة. وهكذا أُبقي لهذا النوع من الألفاظ على بعض وظيفتها الدلالية وحافظت نظرية فريجه على خيط الصلة مع نظرية الموضوعات المينونغية دلاليا مع أنها قطعت معها أنطولوجيا، وقد كان ذلك مدعاة ليُلتفت إليها بالنقد حتى من قِبل من جعلوها بادئ الأمر أساسا لفلسفاتهم، وفي مقدمة أولئك برتراند راسل.

لم يكن راسل عراب الثورة الأنجلوساكسونية على تقاليد **المثالية** في الأوساط الفلسفية المعاصرة ورمزَ التوجهات الدلالية المناوئة لنظرية الموضوعات **المينونغية** فحسب، بل كان أيضا أبرز من التمس التناقضات المنطقية المفضية إليها نظرية فريجه في بعض جوانبها والتهديداتِ التي تمثِّلها لقوانين منطقية لا ينازع في

21- يعني هذا أن ما يمنح الاسمَ إحالةً ليست هي الاعتبارات الأنطولوجية الخالصة، وإنما هي الاعتبارات الإبستيمولوجية والتداولية، كأنَّ فعل الإحالة ليس واقعة خام، وإنما تحددها هذه الاعتبارات بقدر أو بآخر. بدون هذا التحديد يصبح الكثير من ألفاظ العلم بلا إحالة، خاصة ما اشتملت عليه فرضيات علمية لم يُتحقق من صدقها بعد بدليل علمي (تجريبي أو غيره) ولا يمكن حدوث ذلك الآن.

22- Frege, Sense and reference, op. cit., p. 214

صحتها أحد. وإذ التقى مع سلفه الألماني في القول بعدم أصالة كيانات التخييل والأسطورة وأنكر عليها الحق في انتسابها إلى نظام الموضوعات (على المستوى الأنطولوجي)[23] ومن ثم أنكر على الألفاظ الدالة عليها فعل الإحالة (على المستوى الدلالي)، [24] فقد وجد مسألة الدلالة قد تُصوِّرت وحُلِّلت بشكل خاطئ سواء مع أليكسيوس مينونغ أو مع غوتلوب فريجه. ومن ذلك، فقد ألفى تمييزَ الأخير بين المعنى والإحالة مفتقرا للدقة؛ مع أنه يجنبنا خطأ الإقرار بوجود كيانات تخييلية (وهي كيانات زائفة)، إلا أنه يفضي إلى التسليم للتعبيرات الدالة عليها بإفادة المعنى، والحال أنها قاصرة عن ذلك تمام القصور، مثلها مثل بقية التعبيرات الدالة denoting[25] phrases «لا يكون لها أي معنى في ذاتها، وإنما المعنى يكون فقط للقضايا التي ترد في عباراتها اللفظية».[26]

بمقتضى نظرية الدلالة On Denoting عند راسل، معزَّزة بفلسفته الذرية المنطقية Logical Atomism، فقد أصاب فريجه على المستوى الأنطولوجي عندما أنكر على ما يُزعم أنها كيانات تخييلية انتماءَها إلى نظام الموضوعات، ولكنه لم يُفد من ذلك ترتيبَ نتائج صحيحة على المستوى الدلالي. ما كفاه تجريد الألفاظ الدالة على تلك الكيانات الزائفة من فعل الإحالة لتجريدها من المعنى أولاً وإزاحتها من مقامات أسماء الأعلام ثانيا، ومردُّ ذلك إلى **فصله** الخاطئ بين معنى اسم العلم وإحالته من جهة، وإلى تعريفه المغلوط لهذا النوع من الألفاظ وسوء فهمه لوظيفتها من جهة ثانية. والحال أن اللفظ لا يكون اسما حقيقيا ما لم يقابله **جزئي a particular محدد** من جزئيات العالم يكون هو اسمه، فهو «رمز تام يستخدَم للإشارة إلى شخص مخصوص»، [27] ولا تؤدي هذه الوظيفة على التمام إلا أسماء الأعلام proper names، فحتى الأسماء العامة لا تصلُح سوى للوصف ولا تقوم مقام الجزئيات، بل وقد وجد أن اسم العلم بالمعنى المنطقي لا تستوعبه إلا أسماء الإشارة من قبيل «هذا» و«ذاك» وما ماثلهما؛ لأنها وحدها الدالة على الاتصال المباشر بين الاسم والشيء وهو شرط التسمية الحقيقية. وليس مِن ما يُعتبر «أسماء تخييلية» ما يستوفي أحد هذه الشروط، فلم تكن أسماء حقا ولا كان لها أن تقوم مقام الموضوعات في قضايا صادقة، وما كان ذلك حاله وجب التخلص منه بالتحليل المنطقي.

من أجل ذلك، اقترح راسل إجراء تحليليا أصيلا في فلسفته آتيا من نظريته الدلالية **في الأوصاف** ابتغى به التدليل على تبعية معاني التعبيرات الدالة عامةً لمعاني القضايا الواردة في عباراتها اللفظية، [28] كما رام به البرهنة على خلو أسماء التخييل خاصةً من كل وظيفة دلالية. ويتمثل في إعادة الصياغة الشارحة paraphrasing لكل جملة يشغَل فيها تعبيرٌ دالٌ حيزَ الموضوع، بتفكيكه ليستحيل تعبيرا حمليا لا موضوعا للحمل، حتى إذا

23- بل هي ليست كيانات non-entities قبل أن تكون موضوعات غير أصيلة not genuine objects، ومهما بلغ عددها فهي تشكل آخر الأمر المجموعة الفارغة. وإن أجلى وجوه المفارقة أن يسلم المرء أن اللا كيان موضوع.

24- Bertrand Russell, "On Denoting", *Mind, New Series*, Vol. 14, No. 56 (Oct., 1905), 479-493, p. 491

25- يقصد راسل بـ«التعبير الدال» كل لفظ لا يقابله جزئي من جزئيات العالم يشير إليه، ومن ثم يفتقر للمعنى في ذاته فلا تكون له إحالة، سواء كان هذا اللفظ تعبيرا وصفيا أو اسما زائفا لكيانات مزعومة مثل أسماء التخييل والأسطورة وما ماثلهما.

26- Russell, On Denoting, op. cit., p. 480

27- Russell, *The Philosophy of Logical Atomism*, London and New York: Routledge, 2009, p. 12

28- Russell, On Denoting, op. cit., p. 488

أمكننا تمثيل معنى القضية دون جعله موضوعا لها كان ذلك دليلا كافيا على عدم أصالته فيها (أي علامة على أنه ليس مكوِّنا منها يقابل مكوِّنا من واقعة تُصورها)، وإذن لا يكون اسما لشيء.[29] ينطبق هذا التحليل على التعبيرات الدالة المركَّبة كـ«الحصان المجنح» و«ملك فرنسا الحالي»، وتغدو به الجملة الخبرية «الحصان المجنح كائن أسطوري» جملة أخرى مختلفة هي «يوجد شيء واحد ووحيد هو حصان، وهو مجنح وهو أسطوري» يُزاح فيها التعبير «الحصان المجنح» من مقام الموضوع ثم يُفكَّك ليصير تعبيرا حمليا بلا إحالة، فتكذِب بما يكفي لتكذيب الاعتقاد أنه اسم.

ومع أن هذا التحليل يمكِّننا من استخدام بعض كلمات التخييل على نحو مفيد للمعنى دون سقوط في زعم وجود الكيانات المفترَض أنها تسميها، وهو ما يقينَا شرور إحراجات منطقية عديدة، أبرزها عجزُ قانونَي عدم التناقض والثالث المرفوع عن العمل أمام أقوال مثل «ملك فرنسا الحالي أصلع» و«الحصان المجنح غير موجود»، [30] فإن استيعابه لألفاظ مثل «بيغاسوس» أو «شيرلوك هولمز» أو «فيكتور فرانكنشتاين» أو أيًّا مما يُوظَّف كاسم علم تخييلي مشروطٌ بقدرتنا على ترجمتها إلى أوصاف، ولكن الوظيفة الدلالية لاسم العلم تختلف عن وظيفة الوصف المحدَّد تمام الاختلاف وهذا ما يقره راسل نفسه، ومن ذلك أن الأول رمز بسيط يقوم مقام موضوع واحد محدد (وذلك هو معناه)، بينما الثاني رمز مركب يتألف معناه من معاني الكلمات المكوَّن منها ولا يقوم مقام الشيء الذي يصف، وهو ما يعني أن تحويل اسم العلم التخييلي إلى وصف محدد هو نوع من المصادرة على المطلوب؛ فهو تطويع غير مسوَّغ منطقيا لهذا الاسم حتى تنطبق عليه نظرية الدلالة عند راسل، والحق أنه مهما اجتهدنا في صياغة الوصف المحدد لبيغاسوس لن يمكن استبداله بالاسم الذي يقوم مقام ذلك الموضوع.

ولكن نظرية الدلالة عند راسل قد رسمت الطريقَ لفلاسفة لاحقين في مجابهتهم المشكلات الأنطولوجية والدلالية المتصلة بنظرية الموضوعات عامة، كما أمدَّتهم بآلية تحليلية **أولية** فعالة في التصدي للنظريات المينونغية في القول التخييلي خاصة، فإما آل بهم الأخذ بها إلى نفس ما آلت إليه النظرية الأصلية، وإما انتهى بهم إلى نتائج مباينة لنتائجها. فقد استند إليها ويلارد كواين Willard V. O. Quine (1908-2000) للتدليل على أن عالم الموضوعات المينونغي عالم مزخرف إلا أن مُستكشِفه يلقاه عالما منتفخا ومكتظا and bloated overpopulated[31] universe؛ قوامه موضوعات غير حقيقية وكيانات وهمية، فضلا عن كونه عالما عشوائيا إما تُنسب فيه للموضوعات خصائص ليست لها، أو تُنشأ فيه بينها علاقات لا تقبلها، أو تُصنَّف إلى فئات

29- Ibid., p. 482

30- حيث إن القول «الملك الحالي لفرنسا أصلع» غير صادق ولا كاذب؛ لأننا إذا أحصينا أشياء العالم المتصفة بالصلع لم نجد بينها الملك الحالي لفرنسا، كما أننا إذا أحصينا الأشياء التي لا تتصف بالصلع لم نجده بينها أيضا، وهو ما يهدد قانون الثالث المرفوع ويتهدد بالمثل قانون عدم التناقض. والأمر نفسه يقال عن القول «الحصان المجنح غير موجود» الذي يبدو أنه صادق وكاذب في الوقت ذاته؛ فهو صادق من حيث إنه يتحدث عن شيء غير موجود وينسب له هذه الصفة (وهي أنه غير موجود)، ولكنه كاذب من حيث أنه يفترض شيئا ويتحدث عنه، ثم يقول إنه غير موجود، على نحو يتعطل إزاءه قانون عدم التناقض فيتعطل نتيجة ذلك قانون الثالث المرفوع.

31- Willard V. O. Quine, “On What There Is”, *The Review of Metaphysics*, Vol. 2, No. 5 (Sep., 1948), 21-38, p. 23

بتصنيفات لا تناسبها. ويكفي هذا العالم لتبهت زخارفه وتضيق حدوده أن نعثر على عِلَّتي انتفاخه الأساسيتيْن؛ وهما: خلط أصحابه بين الدلالة والتسمية من جهة، وترتيبهم نتائج أنطولوجية عن مقدمات محض دلالية من جهة ثانية. فقد ظنوا أن مجرد القدرة على الحديث بنحو دال عن كيانات تخييلية علامة على أن هذه موضوعات حقيقية وأن الكلمات المشار إليها بها هي أسماؤها، [32] والحال أن الحديث عن شيء لا يلزَم عنه تقرير كينونة ذلك الشيء، كما أن الدلالة تختلف تمام الاختلاف عن التسمية، فهذه مشروطة بمرجع الإحالة (وجود الشيء المسمَّى)، بينما الأولى مستغنية عن ذلك تمام الاستغناء؛ إذ «لا يحتاج اللفظ المفرد لأن يسمِّي حتى يكون دالا».[33]

وقد ارتكن جلبرت رايل Gilbert Ryle (1900-1976) إلى ذات الآلية التحليلية في التفاته إلى ما دعاها «تعبيرات مضلِّلة منهجيا Systematically misleading expressions»، [34] تلك التي تتصرف كما لو كانت حمَّالة معاني بينما هي تحمل غيرها، وتلك التي تُوهِمنا صورها النحوية بالإحالة على أشياء وتمثيل وقائع بينما تقضي صورها المنطقية بالإحالة على أشياء أخرى وتمثيل وقائع مختلفة.[35] وإذ اعتدَّ بنفس العدة التحليلية الواقعية القاضية أن عالمنا الفعلي هو عالم الموضوعات **الوحيد**، وأن حدوده هي حدود اللغة الحاملة للمعنى، وأن كل ما تنصرف إليه مخيِّلات المبدعين وأساطير الأولين لا تعدو كونها كيانات زائفة، [36] فقد وجد التلازم بين المستويين الأنطولوجي والدلالي غير منفصم، فافترض على تعبيرات اللغة تصويره كشرط لتطابق صورها النحوية وصورها المنطقية. وبمقتضى منظوره الأنطولوجي الجذري، القاضي بأنه لا كينونة إلا لما يتألف منه العالم الفيزيائي، لم يجد مسوِّغا منطقيا لزعم الإحالة على أحاديات القرن والأبقار اللاحمة أو ادعاء تمثيل وقائع تدخل في تركيبها أمثال هذه الكيانات الزائفة، [37] فافترض على التحليل الفلسفي مهمة كشف التضليل التي تمارسه هذه **التعبيرات الحملية الخفية**.[38]

32- فيستنتجون أنه لا بد أن يكون هناك شيرلوك هولمز من أجل أن يكون للفظ «شيرلوك هولمز» معنى. ويزكي الالتباسَ عندهم اعتقادهم أننا حتى إذا أردنا نفي الكينونة عن شيرلوك هولمز فإننا نقول «شيرلوك هولمز لا يوجد» أو «شيرلوك هولمز ليس يكون» أو «شيرلوك هولمز ليس كيانا» أو ما شابه ذلك، بما يعني أنه لا بد لنا أن نسلِّم لشيرلوك هولمز بكونه موضوعا ونمنح الاسم «شيرلوك هولمز» الحق في أن يشغل حيز موضوع الحمل في الجملة حتى نكون قادرين على الحديث عن شيرلوك هولمز ولو بالنفي؛ فلا بد له أن يكون موضوعا وإلا سيكون من اللغو حتى القول إنه ليس كيانا. ولكن قوة هذا الاستدلال –في نظر كواين- تتبخر عندما يُواجه بالإجراء الرَّدِّي الذي اقترحته نظرية الأوصاف عند راسل وبيناه آنفا، حيث يتضح أننا نستطيع نفي وجود ذلك الموضوع المزعوم دون أن نُضطر إلى افتراض كينونته أو استعمال اللفظ الذي يشير إليه كموضوع للحمل.

33- Quine, On What There Is, op. cit., p. 28

34- تشمل كلمة «تعبير expression» عند رايل الكلمات، والتعبيرات المؤلفة من كلمات، والجمل البسيطة، والمركبة على حد سواء (فهي مرادف «اسم العلم» عند فريجه)، ولكني أركز الحديث هنا فقط على الكلمات والتعبيرات المؤلفة من كلمات دون أن تؤلف جملة كاملة.

35- يوحي القول «شيرلوك هولمز شخصية تخييلية» بأن هناك شيئا في العالم هو شخصية تخييلية ويدعى شيرلوك هولمز والحال أن مفاده الحقيقي هو أنه لا يوجد شيء في العالم هو شيرلوك هولمز.

36- Gilbert Ryle, "Systematically Misleading Expressions", *Proceedings of the Aristotelian Society*, New Series, Vol. 32 (1931 - 1932), pp. 139-170, p. 149

37- حتى على المستوى التركيبي، فإن التعبير المضلل «أبقار لاحمة» لا يحيل على موضوع، لا يمكنه أن يشغل حيز المحمول في القضايا وإن كان الظاهر النحوي للجمل قد يُظهر عكس ذلك، فهو ليس موضوعا حقيقيا للحمل، وإنما هو تعبير حملي predicative expression يجب أن نجد موضوعا حقيقيا لنحمله عليه إذا أردنا لقولنا سلامة صورته المنطقية وأردنا له أن يكون معبرا عن قضية حقيقية، بصرف النظر عن صدقها أو كذبها.

38- Ryle, Systematically Misleading Expressions, op. cit., p. 147

ولكن اللافت في تحليل رايل أمران اثنان يجسِّدان نحوَه إلى **تحجيم** الإجراء التحليلي الذي اقترحه راسل بحدود الغايات الفلسفية من جهة **وتطويعه** لِيَلين للمقتضيات التداولية من جهة ثانية، وهو ما مكَّنه-والحق يقال- من الاصطفاف إلى جانب المقاربات التي أخذت القول التخييلي مأخذ الجد بدل تلك التي آثرت الإلقاء به في سلّة مهملات استخدام اللغة (راسل وكواين): أول الأمرين أنه لم يجد «التعبيرات المضللة منهجيا» (خاصة تلك التي تضم أسماء تخييلية) رموزا ناقصة، بل ألفاها مفيدة لمعاني تامة تُفهم تمام الفهم من كل مُلِمّ بمعجم اللغة وقواعد استعمالها، وهي نفس المعاني التي تكون لها ما أن تعاد صياغتها الصياغة السليمة. فعندما يقول القائل إن «هيرمس كيان أسطوري»، لا يحتاج مخاطَبه إلى شرح ليفهم قصدَه (أنطولوجياً) أنه لا يوجد شيء هو **هرمس**، كما لا يحتاج إلى معونة فلسفية ليفيد منه (دلاليًا) أن اللفظ «هرمس» غير مُحيل على شيء. وبالمثل، فإن القائل «لا يوجد بقر لاحم» لا يعني (أنطولوجياً) أكثر من أنها «لا توجد حيوانات هي أبقار وهي لاحمة» كما أنه لا يقصد (دلاليا) سوى أن لفظ «بقر لاحم» ليس اسما لشيء، وليس فهمُ ذلك يعسر على أحد. أما الأمر الثاني في تحليل رايل، فهو أنه لم يجد إعادة صياغة «التعبيرات المضللة منهجيا» (خاصة تلك المتضمنة لأسماء تخييلية) عملية ضرورية إلا بالنسبة للفيلسوف، فـ«لأهداف فلسفية خالصة نحتاج إلى إعادة صياغة هذه التعبيرات في أخرى تكون صورها التركيبية مناسبة للوقائع التي تشير إليها (أو التي يُزعم أنها تشير إليها)»، [39] أما في الكلام العادي وملاحم الشعراء وقصص المبدعين وغيرها من الخطابات غير الفلسفية لا تكون لنا حاجة إلى ذلك، لنفهم ما تفيده ألفاظ اللغة.

حاصل القول، لئن حق لمينونغ ادعاء الفضل في إثارة الانتباه إلى المشكلات اللازمة عن القول التخييلي، فإن صنيع الفلاسفة التحليليين في ذلك كبير. صحيح أن الرعيل الأول من هؤلاء قد وقف من تلك المشكلات الموقفَ العدمي أحيانا وسلك إلى حلِّها المسلكَ الاختزالي في أحيان أخرى، فلم يأخذها بما يكفي من الجد (ولا عجب؛ فإن جرَّة القلم التي ألقت بكل الميتافيزيقا وعلم الجمال والأخلاق في خانة **اللامعنى** لم تكن لتُلقي بملاحم الشعراء وأساطير الأولين وقصص القصاصين في خانة **المعنى**)، مانعهم من ذلك انصرافهم إلى محاكمة مذهب الفيلسوف النمساوي **بمسلَّماتهم** الفلسفية الناشئة أكثر من التفاتهم إلى المشكلات التي تَناولَها واجتهادِهم في استحداث النظريات المستوعبة لها أنسَب الاستيعاب، وقد حرَّكهم في ذلك همُّ إعمال الوظيفة الجديدة للفلسفة من جهة والالتزامُ بمبادئ المنهج التحليلي (روح هذه الفلسفة) من جهة أخرى. ولكن هذا الموقف قد سعى في خدمة مشكلات التخييل من حيث لم يدرِ أصحابه؛ فربما لم يكن للنظريات الدلالية في التخييل أن تُزهِر لولا ردود راسل على مينونغ، ولم يكن ليجتمع لـ«نظرية الموضوعات» الأنصارُ من المعسكر التحليلي (قبل غيرهم) فيجعلوا منها حجر الرحى في مقارباتهم الجديدة ذوات القوى الحجاجية الأخَّاذة لولا مساعي فلاسفة مثل رايل وكواين إلى تفنيدها. فلنأخذ شاهدا على هذه الدعوى بنظرية ذهب إليها بادئ الأمر الفيلسوف التحليلي جون سيرل وتبعه إليها مواطنه ساول كرايبك، ويمكننا تسميتها بأحد اسمين، «نظرية الخلق» أو «نظرية التظاهر»، وهي تقوم على مبدأين مترافقين: أولهما أن كيانات التخييل موضوعات حقيقية

39- Ibid., 142-143

تابعٌ وجودها لأفعال أشخاص من العالم الواقعي، والثاني أن القول التخييلي نوع من التظاهر أو الادعاء لا يروم الخداع ولا التضليل.

ج- لشيرلوك هولمز عالمه الخاص!

قدَّم جون روجرز سيرل John R. Searle (ولد سنة 1932) تحليلا جديدا للوضع الدلالي للقول التخييلي أرفق به منظورا أنطولوجيا محدثا. وإذ شايع التقليد التحليلي في إنكار وجود كيانات التخييل في عالمنا الواقعي، فقد أدار ظهره لتحليله الاختزالي عندما أقر لها بالوجود في عوالم أخرى هي عوالم التخييل worlds of fiction؛ فإن عدم وجود شيرلوك هولمز والدكتور جون واطسون في عالمنا الواقعي لا يعدم وجودهما في عالم «مغامرات شيرلوك هولمز» الذي **أبدعه** السير آرثر كونان دويل.[40] لقد خلقت مُخيلة الكاتب الاسكتلندي عالما **من العدم**، بأشخاصه وأحداثه وأزمنته وأمكنته ومختلف كياناته، وما أن فعلَت حتى غدا لتلك الكيانات وجودا فعليا في عالمها وإن كانت مفتقرة له في عالمنا نحن.[41] إنها كيانات حقيقية متعلِّق وجودها بأفعال شخص من عالمنا.

ولا تنفصل أنطولوجيا القول التخييلي عن دلاليات الألفاظ المفردة المستعملة فيه، ويتضح الوثَاق بينهما ما أن نهُمَّ بالنظر في الكيفية التي يُبدع بها المؤلِّف عالما تخييليا. فقد خلق كونان دويل شخصية شيرلوك هولمز عندما خصَّها باسم يُفردها، وإذ إن التسمية الجِدِّية والعادية serious and normal naming لا تتم إلا لمن نراهم رأي العين وليس ذلك حال هولمز، فإن كونان دويل تصرَّف كما لو كان يسمِّي شخصا، مقلِّدا الفعل الحقيقي. لنقُل إنه **تظاهَر بتسميته**. وإذ أن أسماء الأعلام العادية إنما تحيل على أشخاص حقيقيين، فقد **تظاهر بالإحالة** على شخص مخصوص، وعلى هذا النحو خلق هذه الشخصية فعلا. يعني ذلك أنه لم يُسمِّ شخصا ولا أحال عليه **فعلا** باسم؛ لأنه لم يوجد قط، ولكن «التظاهر بالإحالة the pretended reference قد خلق الشخصية التخييلية».[42]

وما أن يخلق المؤلِّف عالما تخييليا وينتشر خبره بين القراء، حتى تغدو قصته وشخصياته وأحداثه وأزمنته وأمكنته أشياء حقيقية نحيل عليها مثلما نفعل إزاء كيانات محيطة بنا، ألا ترى أن هولمز لم يزل يستأثر بلقب «المحقق الأشهر على الإطلاق»، وأننا لم نفتأ نحيل عليه بهذا الوصف؟ لم يكن لنا ذلك قبل أن يخطَّ الكاتب نصه، فـ«ما أن تُخلق الشخصية، يصبح بإمكاننا نحن الذين نقف خارج القصة المتخيلة أن نحيل عليها حقا we

40- John R. Searle, *Expression and Meaning, Studies in the Theory of Speech Acts*. Cambridge: Cambridge University Press, 1979, p. 71

41- يختص عالمنا الواقعي بكونه عالما واحدا بينما تتعدد عوالم التخييل بتعدد الأعمال التي **تخلقها**. ولئن كان عالمنا عالما موضوعيا خاما في جزء كبير منه ومستقلا عن الذوات التي تلاحظه؛ وذلك شأن **شقه الفيزيائي**، فإن عوالم التخييل تابعة تبعية تامة لأشخاص من عالمنا الواقعي؛ لأن وجود هذه العوالم مشروط بوجود أولئك واستمرار لأفعالهم وليست في ذلك بمختلفة عن الشق الآخر من عالمنا الواقعي الذي هو الشق الاجتماعي؛ فإذا كان المؤلفون يخلقون كيانات تخييلية، فإن غيرهم من الفاعلين الاجتماعيين يخلقون الأفكار والحقائق والقيم الأخلاقية والكليات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية وليس شيء من ذلك يوجد مستقلا عن الذوات التي تنشئه، فهي عناصر عالم اجتماعي مبني يدوم له الوجود بدوام وجود الأشخاص الذين أنشأوه. انظر كتاب سيرل «العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي»، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، 2006

42- Searle, Expression and meaning, op. cit., p. 71

really referred to»،[43] فأقول بلا خشية وقوع في لغو: «بطل روايات كونان دويل محقق فائق الذكاء». يعني هذا أن الأسماء الواردة في النص التخييلي ليست ألفاظا خاوية بلا معاني مثلما حسبها راسل، ولا هي محض تعبيرات حملية مستترة مثلما رآها رايل، ولا حتى أسماء أعلام بلا إحالات كما خالها فريجه، بل هي أسماء حقيقية تمر بطورين: **أولهما** عندما يبتدعها المؤلف ويكون استعمالها «تسميةً وإحالةً متظاهَر بهما» فيخلق بواسطتها الكيان التخييلي، **والثاني**، بعد فعل الخلق ذاك، يغدو بإمكاننا نحن الإحالة على الكيان باسمه. لنقُل إذن، **يُتوسَّل بالاسم من داخل النص التخييلي للتظاهر بالإحالة، بينما يُتوسَّل به من خارج ذلك النص للإحالة فعلا**.

ولم يكن جون سيرل الفيلسوف التحليلي الوحيد الذي أدار ظهره للإجراء الردِّي في تناول مشكلات القول التخييلي، فهذا ساول كرايبك Saul Kripke (1940-2022) قد وقف منه الموقفَ ذاته بعد أن استقرت نظريته على الارتكان إلى **مذهب الخلق Creationism** باعتباراته الفلسفية وأبعاده التداولية ودعامتيه الأساسيتين: الأنطولوجية، القاضية أن كيانات التخييل كيانات مجردة توجد في عالمنا الواقعي بفعل أنشطة أناس من بيننا، والدلالية القاضية أن أسماء هذه الكيانات تعمل بنحو مختلف عن الذي تعمل به أسماء الأشياء المحيطة بنا.

ففي المستوى الأنطولوجي، لم يكتف كرايبك برفض أنطولوجيَا نظرية الأوصاف انتصارا لروح مذهب مينونغ القاضي أن الكينونة مراتب، وأن كيانات التخييل موضوعات حقيقية مفتقرة للوجود، بل ذهب أبعد من ذلك عندما عدَّ «الشخصيات التخييلية كيانات من نوع معين **توجد** في العالم الفعلي [...] بفعل أنشطة الناس والعلاقات التي تربطهم».[44] وليست في ذلك نشازا عمّا يتقوَّم به هذا العالم، فالحق أن الكثير ممّا يُصادَف فيه (عينيا كان أم مجردا) قد أتى إلى الوجود بأفعال الناس وبها يستمر وجوده؛ إذ توجد المنازل والمؤسسات ومخطوطات الكتب ووسائل والتواصل والنظريات العلمية والمعتقدات الدينية والقيم الاجتماعية لأن الناس أنتجوها بطريقة أو بأخرى، فلِم لا يصدق على الكيانات التخييلية ما يصدق على هذه؟ إن الكتّاب قد أبدعوا أعمالا أدبية صارت الآن أجزاء من عالمنا الاجتماعي، وإن الشخصيات التخييلية توجد في هذه الأعمال مثلما توجد الأعداد في النظريات الرياضية.[45]

غير أن المرء مدعو لاعتبارِ أمرين في سؤال الوجود كلما انصرف نظره إلى أنطولوجيا التخييل: عليه أن يتأكد أولا من نوع الكيان الذي يحدِّث به، فلئن كان هاملت يحضر في عالمنا كشخصية تخييلية (أو كيان مجرد)، فإنه لا يتمكَّن فيه كرجل من عظم ولحم وأمير لدولة الدنمارك. وعليه ثانيا أن يتبيَّن منزلة الوجود التي يحيل عليها مميِّزا بين **داخل** العمل التخييلي **وخارجه**: إذ لا يوجد شكسبير من **داخل** مسرحيته الأشهر بينما يوجد

43- Ibid., p. 72

44- Saule Kripke. *Philosophical Troubles*, Collected Papers, Volume 1. Oxford: Oxford University Press, 2011, p. 62-63

45- وهذا عين تصور سيرل لبناء العالم الاجتماعي، والذي رام به تفنيد التصورات الوضعية القاضية بالوجود الموضوعي للكليات الاجتماعية مستقلة عن أنشطة الفاعلين الاجتماعيين.

فيها هاملت كشخص حقيقي، وفي المقابل، يوجد شكسبير **خارج** المسرحية كشخص حقيقي بينما يوجد هنالك هاملت كشخصية تخييلية فقط. إن الاثنين قد وجدا في عالمنا الفعلي، ولكن منزلتي وجودهما تختلفان، كما أن وجود أحدهما تابع لفعل الآخر.[46]

ولا تستقل دلاليات القول التخييلي عن أنطولوجيا الكيانات التي ينقل خبرها، وهي دلاليات طبيعية تحكمها اعتبارات تداولية خالصة. ولما كان هاملت موجودا في عالمنا الفعلي بنحو مختلف عن وجودنا نحن، فإننا مخيرون أمام **اسمه** بين أمرين:

أ- إما نقول إنه اسم لشخصية تخييلية، وهو ما يمدُّه بمرجع إحالة حقيقي، ولكنها إحالة محدَّدة بأنطولوجيا هذا النوع من الاسم: فمثلما هو مستعمل داخل المسرحية، يحيل الاسم «هاملت» على شخص حقيقي وليس على شخصية تخييلية. أما عندما نستعمله نحن الذين نقيم خارج المسرحية، فإننا نحيل به على شخصية تخييلية.[47] ولكن في الحالتين معا، ما أن يُكتب النص حتى يصير للاسم «مرجع إحالة يمكن للمرء افتراضه بنوع من اليقين».[48]

ج- وإما نقول إن الاسم مفتقر للإحالة في الواقع (خارج النص التخييلي) دون أن يمنع ذلك الكاتبَ من التصرف كما لو كان يحيل على شيء؛ وذلك شرط وظيفية نصه في الحقيقة؛ إذ تتمثل كتابة النص التخييلي في تخيُّل وجود هذه الشخصية أو تلك، بهذا الاسم أو ذاك، وقتئذ يُفترض للاسم الوظيفة الدلالية التي للأسماء العادية دون أن نفعل ذلك نحن إلا حين قراءة النص.[49]

حاصل القول، قد يبدو أن مشكلات التخييل مشكلات أنطولوجية خالصة لا صلة للدلالة بها، طالما أننا نستطيع فهم القول التخييلي مثلما نفهم القول العادي دون أسئلة تنغص علينا متعة قراءته ولا حاجة إلى تعلّم معجم لغته وقواعد استعمالها ثانية، ولكن المرء يواجه بالحقيقة بعد حين، ما أن يُسأل عن صدق هذا القول أو كذبه وعن طبيعة الوقائع التي يحدث بها. وبصرف النظر عن الأسس الفلسفية التي يعتد بها الناظر في معالجة المشكلة الأنطولوجية هاهنا، فإن الثابت **الأول** الذي ينبغي التسليم به هو أن دلاليات القول التخييلي تتحدد كليا بأنطولوجيا أسمائه. ولكن الأخذ بهذا المحدِّد لا يكفي، فقد اتضح أن النزعة الواقعية استحالت نزعة اختزالية، باسم التمسك بما يوجد آثرت تجاهل الأسئلة الدلالية على الاستجابة لها بالنحو المأمول. أما الثابت **الثاني**، فهو أن الاستجابة المُرضية لمشكلات التخييل تستلزم بعض التوسيع للدلاليات الكلاسيكية أحيانا

46- مع أن كرايبك قد حاول فك ارتباط هذا التحليل بذاك الذي قدمه مينونغ معتبرا أنه ليس حديثا عن مستويات الكينونة مثلما بيَّنها الفيلسوف النمساوي، إلا أن الارتباط بين التحليلين ظاهر لا فكاك منه.

47- يرفض كرايبك اللجوء على التمييز بين «اللغة الشيئية» و«لغة اللغة» أو «اللغة الفوقية» مثلما نلفيه عند مناطقة أمثال فريجه وراسل وكارناب وذلك كجزء من رفضه لنظرية الأوصاف عند راسل، فيرفض ترجمة القول «هاملت شخصية تخييلية» إلى القول «هاملت غير موجود» ومن ثم إلى القول «الاسم ‘هاملت’ ليس له مرجع إحالة».

48- Kripke, Philosophical Troubles, op. cit., p. 71

49- Ibid., p. 58

وبضع انحراف عن مبادئها الأساسية في أحيان أخرى، وتشهد على ذلك جاذبية نظريات محدثة سطع نجمها عقب أفول نجم النزعة الواقعية المحدثة، منها نظرية الخلق ونظرية العوالم الممكنة. وأما الثابت **الثالث**، فهو أن أخذ مشكلات التخييل على محمل الجد يكفيه الاعتداد ببيانات السلوك البشري، فإن ما تُصوره مخيلة المبدع ليس محض هذيان وإن ما تخطُّه يده ليس مجرد لغو وثرثرة، ويمكنك أن ترى ذلك في سلوكات الناس ما أن تنصرف إلى نصه كلماتهم.

2- الوضع المنطقي للقول التخييلي

أمر الآن إلى مناقشة الوضع المنطقي للقول التخييلي، وأحصر معنى «الوضع المنطقي» هنا في أمرين؛ الأول هو القيمة الصدقية للقضية التخييلية، والثاني هو صورتها المنطقية ومدى لزوم نتائج عنها ومدى صحة الاستدلال المؤلَّف منها جميعا. ومن أجل مزيد بيان لمواد المحور السابق وتطويرها، ولأن القول في الوضع المنطقي للقضية والاستدلال التخييليين امتداد للقول في أنطولوجيا الاسم التخييلي ودلالياته، فإني أعود إلى النظريات المستثمرة آنفا لاقتناص الدعاوى التي ذهبت إليها في هذا الباب. لذلك سيكون السؤال الأساسي هنا هو الآتي: ما هو الوضع المنطقي للقول التخييلي؟ غير أني سأقاربه مفصَّلا بتناول الأسئلة الفرعية الآتية: ما وظيفة الخبر في فعل السرد القصصي وما الذي نفعله عندما نحدِّث بالقصة من خارج؟ أيتألَّف النص التخييلي من قضايا عادية بصور منطقية سليمة كسلامة صورها النحوية؟ أتُصور هذه القضايا وقائع وتمثِّل بناءاتِها المنطقية؟ أهي صادقة؟ إن كانت كذلك فما هي عناصر الصدق وشروطه في مجال التخييل؟ أم هي كاذبة؟ وإن كان ذلك حالها فهل يعني أن كل تخييل كذب ومجرد كذب؟ أم أنها خالية من المعنى مفتقرة للقيمة الصدقية؟

أ- هناك موضوعات يصدق عليها القول إنها لا توجد!

قامت **نظرية الموضوعات** على مبدأ أن «هناك موضوعات **يصدق** عليها القول إنها لا توجد»، وفي مقدمتها كيانات التخييل، غير أن الصدق في هذه النظرية يتحدد بمحدِّدين متلازمين لا غنى عن استحضارهما حين البت: **أولهما** أن القضايا التي تُثبت للموضوعات أحوالها أو تنفيها عنها تصدق جميعا، سواء كان الموضوع موجودا، أو كانت له منزلةُ كينونةٍ دون الوجود، أو كان مفتقرا لها على التمام. فصدقها «معطى أولي»، وبعبارة أكثر ألفة، إنها تصدق صدقا تحليليا، وهذا دليل ذلك: لما كان حالُ مَرجعها «معطى يسبق تحديدنا لكينونته أو عدمها»[50]، وكان هذا الحال هو امتلاك الموضوع خصائصَ معينة (تعبِّر عنه القضية بالإيجاب) أو افتقاره إليها (تعبِّر عنه القضية بالسلب)، وحيث إن كل قضية تخبر عن موضوع، إنما تفعل بإيجاب أو بسلب، فإن كل قضية من هذا القبيل صادقة بالضرورة. لا يمنعنا عدم وجود المثلث من الحديث عن زواياه أو أضلاعه أو

50- Meinong, The Theory of Objects, op. cit., p. 84

مساحته، ولا يمنعنا عدم وجود العدد من القول إنه طبيعي أو صحيح أو كسري أو حقيقي، فما الذي يمنع الخبر عن أحوال أوديسوس وشيرلوك هولمز التي لهما في عالمي الأسطورة والرواية؟ إن من قضايا التخييل ما «ليس يصادف أن تكون صادقة، بل هي صادقة بطبيعتها، صادقة من الداخل إن جاز التعبير. فإن الحكم لا يكون صادقا بقدر ما يكون له موضوع يوجد، ولا حتى بقدر ما يكون له موضوع كائن، وإنما فقط بقدر ما يكون له حال ذو كينونة».[51]

وطالما لا يُشترط في الحكم وجودُ الموضوع ليصدق، لا تُشترط في مضمونه مُطابقة جزئيٍ من جزئيات العالم الفيزيائي أو تصوير واقعة من وقائع هذا العالم، إنما يلزم أن يكون مطابقا لحال موضوعٍ يحيل عليه الحكم فحسب، وهذا هو المحدد الثاني للصدق في نظرية مينونغ؛ إذ تصدق القضية «أوديسوس ملِك أسطوري» لأنها تنسب لكيان حالا هو له في الأسطورة، وتصدق القضية «يحب شيرلوك هولمز التباهي بذكائه» لأنها تسند لشخصية حالا هو لها في الرواية.

وربما يبدو تقييم جمل النص التخييلي بحدي الصدق والكذب أمرا مفتقرا للمعقولية مثلما يبدو مثارا للسخرية التماسُ حقيقة من أساطير الأمم وحكاياتهم الشعبية، إلا أننا قد نسيئ فهم **نظرية الموضوعات** كثيرا ما لم نوسِّع خلفيتنا التأويلية حين النظر فيها، كما سيكون من المغالطة لا محالة مناقشة تصورها للصدق بافتراض مسلمات فلسفية أو مقدمات دلالية أو قوانين منطقية منتسبة إلى نظريات وجد الرياضي النمساوي أنها غير موفية بمقصوده من لفظ «الموضوع». وقد حاول بعض أنصار هذه النظرية تطوير دلاليات مينونغية خاصة Meinongian semantics[52]، قوامها الدلالي تناولُ القول التخييلي كقطعة من الخطاب الطبيعي والتسليم بأن الصدق والكذب في نطاقه مستقلان عن وجود الموضوع أو عدمه، وعصبها المنطقي الإقرارُ أن قوانين المنطق ثنائي القيمة تصدق على قضايا التخييل أحيانا وتعجز عن استيعابها في أحيان أخرى، ومن ذلك عجز قانوني عدم التناقض والثالث المرفوع وثنائية الصدق والكذب المرتبطة بهما عن الانطباق على هذه القضايا. ويعد مسعى تيرانس بارسونز أشهر المساعي إلى إنشاء دلاليات من هذا النوع، مستنده في ذلك بيانات السلوك اللغوي للمتكلمين عندما تنصرف كلماتهم إلى كيانات التخييل وما يتصل بها من حقائق.

وإن أولى الحقائق الحدسية التي تلازمنا ما أن نهمَّ بالخوض في التخييل (بطريقة من الطرائق) هي توجُّه قصديتنا إلى كياناته كما لو كانت متوجهة صوب أشياء العالم الواقعي (اللهم إلا استحضارها الفارق الأنطولوجي بين هذه وتلك) وسلوكنا السلوكَ التداولي ذاته الذي نسلكه حين الخبر عن الأشياء المحيطة بنا؛ فنحيل على فيكتور فرانكنشتاين مثلما نحيل على لودفيج فتجنشتين، ونخبر بواقعة صنعه وحشَه القاتل مثلما نخبر بحقيقة إنشاء ألبرت أينشتين نظريته في النسبية، فلا يمنعنا مانع معقول من البت في المضامين القضوية لجملنا بحدود الصدق والكذب إلا أن تعوزنا البيانات التي تتيح لنا ذلك.

51- Ibid., p. 90

52- Parsons, A prolegomenon to Meinongian semantics, op. cit., p. 567

عندما أقول «الدكتور جون واطسون هو صديق شيرلوك هولمز المقرب ومساعده»، فإني أقول صدقا يمكنك التحقق منه بالعودة إلى روايات كونان دويل الآتية منها الشخصيتان. وبالمقابل، لما أقول «شيرلوك هولمز رب أسرة متفان» فإني أقول كذبا، وأقلّ ما يكذّبه هو أن هولمز لم تكن له أسرة في أي من القصص. وأما عندما أقول «كانت لشيرلوك هولمز ندبة في أسفل رجله اليمنى» فإني أقول قولا غير محدد من جهة قيمته الصدقية، لأن الروايات المذكورة لا تؤكد المضمون القضوي لهذا القول ولا تكذبه، لأنها لم تصف حال أسفل الرجل اليمنى لهولمز.[53] يعني ذلك أن جمل التخييل قضايا حاملة لمعنى، تحتمل الصدق كما تحتمل الكذب، غير أنها تكون أحيانا غير محددة القيمة الصدقية، لا لأن بها أسماء دالة على موضوعات غير موجودة وإنما فقط لافتقارنا للبيانات التي تؤكد صدق الحمل أو تؤكد كذبه. وليس ذلك يمس هذا النوع من القضايا وحده، فالحال أنه يقع على أوصاف موضوعات العالم الواقعي أيضا؛ فعندما أقول عن جبل توبقال إنه مؤلف من ملياري حصى، فإني أقول قولا غير محدد من جهة قيمته الصدقية مع أن موضوعه كيان يُرى عين اليقين.

ولا تختلف القضايا الوجودية الواردة في سياقات النقاشات الأنطولوجية - تلك التي تثبت لموضوعات التخييل الوجودَ أو تنفيه عنها- عن القضايا السابقة، إذ لا ينازعَ في صدق القضية «بيغاسوس غير موجود» كما لا يجادَل في كذب القضية «بيغاسوس موجود». ومع أن هذه القضايا تثير بعض الصعوبات أحيانا بحيث تبدو متناقضة، فإن تلافي ذلك يكفيه توسيع خلفيتنا التأويلية حين البت فيها؛ فلا يلوح تناقض من قول مينونغ «**هناك** موضوعات **لا توجد**» لمن يحسب مجالَ الموضوعات أوسع من دائرة ما يوجد، وذلك خطب الناس في أحاديثهم العادية عندما ينفون وجود أحاديات القرن وآلهة الأسطورة اليونانية وشخصيات الأعمال الإبداعية بمختلف أنماطها. ولا يبدو التناقض في ذلك القول إلا لمن يفترض أمرين اثنين على الأقل: **أولهما** أن «هناك» مرادفا لـ«توجد»؛ إذ تصير عنده القضية «هناك موضوعات لا توجد» مكافئة منطقيا للقضية «توجد موضوعات لا توجد» وهو تناقض جلي، غير أنه افتراض خاطئ طالما أن الكلمة الأولى لا تحمل أي دلالة على الوجود، وإن كانت ترِد بهذه الدلالة في سياقات معينة.[54] وأما الأمر **الثاني**، فهو التسليم بأن امتلاك الموضوع لخاصيةٍ مشروطٌ بوجوده أولا، وطالما يُقرُّ في القول السابق بعدم وجود الموضوع، فإنه يُتناقض مع ذلك الإقرار بإسناد خاصية له، وهذا أيضا افتراض لا يصح إلا بتجاهل الدعامة الثانية في نظرية مينونغ القاضية أن أحوال الموضوعات وخصائصها مستقلة بالتمام عن وجودها، ومن ثم أن صدق القول غير مشروط بوجود الموضوع، أيّا ما كنا نعنيه بكلمة «وجود».[55]

2- لا صدق بلا حمل!

53- ما ينطبق على هذه الأقوال الثلاثة بالترتيب يصدق عن الأقوال الآتية على التوالي، التي تتحدث عن موضوع حقيقي من عالم الأسطورة: «بيغاسوس حصان مجنح»، «بيغاسوس هو رئيس آلهة اليونان»، «كان في ذيل بيغاسوس مائة ألف سبيبة».

54- Parsons, Are there nonexistent objects ?, op. cit., p. 365

55- Parsons, A prolegomenon to Meinongian semantics, op. cit., p. 574

اتجه نظر المناطقة في مطلع القرن العشرين إلى نظرية مينونغ وما حملته من تشغيب على مفاهيم ومبادئ وقوانين المنطق الكلاسيكي وأعينُهم شاخصةٌ إلى الهيأة التي آلت إليها آلتهم المعيارية النظرية غداة تقويمات جذرية مسَّتها. ولقد كان للفيلسوف الألماني غوتلوب فريجه النصيب الأعظم من هذه التقويمات حتى عُدَّ بحق أب المنطق المعاصر ومنشئ فلسفته (فهو مؤسس المنطق الرياضي ومدشِّن المنعطف اللغوي في الفلسفة)، ولا أدل على ذلك من مقاله في «**المعنى والإحالة**» الذي يُعتبر أول نص التفت إلى الوضع المنطقي للقول التخييلي في الحقبة المعاصرة. فعقِب تفريقه بين معنى الاسم وإحالته، انتهى إلى أن معنى كل قضية[56] هو الفكرة التي تحملها a thought بينما إحالتها هي قيمتها الصدقية a truth value. ولما كان معنى الجملة هو دالة معاني الأجزاء المؤلَّفة منها وكانت إحالتها هي دالة إحالاتها، وإذ وجد أن الأجزاء (الأسماء) قد تكون حمالة معاني بلا مراجع إحالات تُناظرها، تقرر عنده أن بعض القضايا قد تفيد معاني دون أن تظفر بمراجع إحالات؛ يعني أنها قد لا تصدق ولا تكذب.

وليس من أمثلة على ذلك أوضح ممّا تتألف منه نصوص التخييل[57]، فإن الجملة «وُضع أوديسيوس على الشاطئ في إيتاكا بينما كان يبدو نائما» تحمل معنى يفهمه كل مُلمَ باللغة العربية مُطّلع على الأسطورة اليونانية، ولكنها لا تصدق ولا تكذب ما دام أوديسوس ليس شيئا؛ فـ«مرجع إحالة الاسم هو ما يُثبَت له المحمول أو يُنفى عنه، ويتعذر على مَن لا يحسبه موجودا أن يفعل به ذلك».[58] فكيف يحصل صدق دون حصول حمل!؟ ذلك خطب كل قول تخييلي، فلا هو يفيد صدقا ولا كذبا.

غير أنه بقدر اهتمامنا الشديد بالصدق في العلم التجريبي، بما يقودنا دوما من المعنى إلى الإحالة، فإننا كثيرا ما نزهد في القيم الصدقية للقضايا مستغنين بمعانيها كلّما تعلق الأمر بنص أدبي أو بعمل فني، فنكتفي بالفكرة مستبدلين البهجة الجمالية التي تبعثها فينا بالقيم الصدقية للقضايا، فلا نحفل بإحالة اسم ولا بصدق عبارة، وهو ما يعطي القول التخييلي منزلة خاصة؛ إذ يُستثنى من الامتثال للقوانين المنطقية دون أن يُفرغ من كامل وظيفته الدلالية، فمن ذا الذي يشغله همُّ الصدق عن الجمالية الأدبية والحمولة الفلسفية لهذا المقطع من رواية مارس شيلي: «ركضت من هناك بأقصى سرعتي وانكسر قلبي، عرفت حينها أنني لن أستطيع أبدا أن أكون جزءا من أي عائلة، وأدركت أنه لن يقبلني أي شخص في العالم بسبب شكلي القبيح. لا يهم أنني أستطيع القراءة أو الكتابة، ولا يهم أنني أستطيع التفكير أو التحدث عن الفلسفة أو موضوعات عظيمة

56- وهي اسم علم بدورها في اصطلاح غوتلوب فريجه.

57- انتبه فريجه إلى أن القول إن القيمة الصدقية للجملة هي مرجع إحالتها يلزم عنه أن كل الجمل الصادقة يكون لها نفس مرجع الإحالة، والجمل الكاذبة يكون لها نفس مراجع الإحالة، على نحو يطمس كل ما هو خاص في الجملة وما به تتمايز الجمل بعضها عن بعض. وقد فسر ذلك بأنه لا يمكننا أن نهتم بمرجع إحالة جملة واحدة فقط رغم أن الحكم الذي تعبر عنه قد يكون خاصا للغاية ولا يقارن بشيء. ولكنه وجد أن ما يكفل التمايز بين الجمل هو معانيها، هو الأفكار المشتملة عليها. انظر ص. 217 من نصه المذكور.

58- Frege, Sense and Reference, op. cit., p. 215

أخرى؛ سيظل الناس يخشونني دائما. وفي تلك اللحظة امتلأ قلبي كرها لك يا فرانكنشتاين لأنك جئت بي إلى عالم لن يقبلني أبدا».[59]

وممّا يسنُد منظور فريجه هذا أن مسعى تقييم قول مثل «أوديسيوس هو ملك إيتاكا» بحد الصدق أو الكذب قد يفضي بنا إلى انتهاك قانون عدم التناقض أو الثالث المرفوع؛ فبموجب الأخير إما أن تصدق القضية أو يصدق نفيها لا محالة، (ب∨~ب)، ولكننا إذا أحصينا الأشياء التي تصدق عليها الصفة «ملك إيتاكا» ثم أحصينا تلك التي لا تصدق عليها لم نجد أوديسيوس في أي من القائمتين، بما يشهد على أن الحمل عليه يؤُول إلى لغو محض بلا قيمة صدقية، [60] ثم إن ما يسوِّغ استثناءَ القول التخييلي من الخضوع للقوانين المنطقية والتقييم بحدّيْ الصدق والكذب هو إقرارُ صاحبه مقدَّما بأنه لا يزعم تصوير وقائع حقيقية، وقد جرى دأب الكتّاب تكريس الصفحة الأولى من النص الإبداعي للتنبيه إلى أن «جميع شخصيات الرواية وأحداثها من وحي الخيال وأن أي تشابه بينها وبين شخصيات وأحداث حقيقية هو من قبيل المصادفة».

بيد أن مفعول النص لا ينتهي بالكلمة الأخيرة فيه وبما تبثُّه في نفس القارئ من ابتهاج، كما أن تنبيهَ كاتبه لا يمنعه من التصرف سببيا، حيث **يُحدث وقائع** جديدة يصوِّرها قراؤه حين الإحالة عليه وعلى شخصياته. حينئذ تنجلي حدود دعوى فريجه؛ فإن كان قول الكاتب غير صادق ولا كاذب، فماذا عن أقوالنا نحن عن قصته وأحداثها وشخصياتها؟ إذا كنا ننكر على شخصيات التخييل والأسطورة كونها كيانات non-entities مثلما نستكثر عليها الحق في أن تكُون موضوعات لقضايا صادقة أو كاذبة، فإننا نظل في حاجة إلى مواجهة الإحراج الذي تُمثله جمل من قبيل «بيغاسوس حصان مجنح أسطوري» و«شيرلوك هولمز شخصية تخييلية مشهورة»، والتي تُلجئنا إلى البحث عن آليات للبت غير الارتكان إلى الزاوية والحكم بالافتقار للقيمة الصدقية.

ومن الإجراءات التي قد تقينا مثل هذا الإحراج ذاك الذي استحدثه برتراند راسل في نظريته «**في الأوصاف**» (أو «**في الدلالة**») والقاضي بضرورة إعادة الصياغة الشارحة للقضية كلما ورد فيها اسم تخييلي أو أسطوري (وهو اسم زائف في اصطلاح راسل، أو محض تعبير غير دال على شيء denoting phrase that denotes nothing) بما يؤول إلى نتائج ثلاث: أ- لكل قضية يشغل حيزَ الموضوع فيها اسم تخييلي قيمة صدقية شريطة إعادة صياغتها الصياغة الشارحة السليمة. ب- كل قضية **تثبت** شيئا لموضوع تخييلي أو أسطوري هي قضية كاذبة. ج- كل قضية **تنفي** شيئا عن موضوع تخييلي أو أسطوري تقبل صياغتين شارحتين اثنتين، تصدق بإحداهما وتكذب بالأخرى.

تبعاً لهذا الإجراء التحليلي، لا محيص عن إعادة صياغة القضية الموجبة «بيغاسوس حصان مجنح» الصياغة الشارحة السليمة (التي يستحيل فيها موضوع القضية الأصلية تعبيرا حمليا خالصا)، وهي: «يوجد كيان x

59- ماري شيلي، فرانكنشتاين، ترجمة فايقة جرجس حنا، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017، ص ص 48-49

60- Russell, On Denoting, op. cit., 485

يدعى بيغاسوس وهو حصان وهو مجنح». ولكننا إذا أحصينا كل أشياء العالم لم نجد بينها واحدا يصدق عليه الحمل «يدعى بيغاسوس وهو حصان وهو مجنح»، ومن ثم تكذب القضية الأصلية. وتبعا لنفس الإجراء تلزم إعادة صياغة الجملة السالبة «هاملت ليس مجنونا» بإحدى صورتين، تكذب بواحدة وتصدق بالأخرى (حسب قصد المتلفظ بها): الأولى هي «يوجد كيان x يدعى هاملت وهو ليس مجنونا»، وهذه كاذبة لانعدام ما يصدق عليه الحمل «يدعى هاملت وهو ليس مجنونا» (أو لنقل قولَ فريجه إنه لا يوجد موضوع حتى يصدق عليه نفي المحمول). ولكن القضية تصدق بموجب صيغتها الشارحة الثانية وهي «من الكذب أن هناك كيانا x يدعى هاملت وهو مجنون»، فهذا مجرد نفي للقضية الحملية التي تفترض الوجود لموضوع تخييلي وتسند له المحمول «مجنون»، وبما أن الحمل كاذب، فإن نفيه صادق.

ومن أجل مزيد إبانة للفارق بين الصيغتين الشارحتين المتباينتين للجملة السالبة الواحدة، يمكن الاستضاءة بالتمييز الذي أقامه راسل بين ورود التعبير (الاسم التخييلي) في موقع أساسي من القضية وبين وروده في موقع ثانوي. ففي الصيغة «**من الكذب** أن هناك كيانا x يدعى هاملت، وهو مجنون» ورد التعبير «هاملت» في موقع ثانوي؛ أي إن الحمل في الجملة ككل غير واقع عليه بل على الجملة الداخل في تركيبها، وهي «هناك كيان x يدعى هاملت وهو مجنون». أما في الصيغة «يوجد **كيان x يدعى هاملت** وهو ليس مجنونا»، فقد ورد التعبير «هاملت» في موقع أساسي؛ أي إن الحمل في الجملة واقع على «الكيان x المدعو هاملت» وليس على شيء آخر غيره. وإن كل القضايا الوارد فيها التعبير «هاملت» في موقع أساسي قضايا كاذبة، بينما نفي كل واحدة منها يصدق، ولكن التعبير ينتقل بموجب النفي إلى موقع ثانوي من القضية.[61]

تكمن قيمة هذا التمييز في كونه ربما يجنبنا انتهاك قانوني عدم التناقض والثالث المرفوع حين القول إن كل قضية تثبت شيئا لموضوع تخييلي كاذبة؛ فعندما نحكم بكذب القضيتين «هاملت مجنون» و«هاملت ليس مجنونا» على السواء، إنما نفعل ذلك دون مساس بالقاعدتين (ب∨~ب) و~(ب∧~ب) طالما أن القضية الأولى تعني أن «هناك كيانا x يدعى هاملت وهو مجنون»، بينما تعني الثانية (في إحدى صياغتيها الشارحتين) أن «هناك كيانا x يدعى هاملت وهو ليس مجنونا»، ولا ينازع أحد في كذب هاتين القضيتين لنفس السبب وهو عدم وجود كيان يدعى هاملت.

وللسائل أن يسأل: ما الحاجة التي تؤوينا إلى إعادة الصياغة الشارحة للجملة التخييلية ما لم تكن تثير مشكلات خلال التداول؟ وما الذي يُلجئنا إلى هذا النوع من **التأويل** (الذي قد ينحرف بالقول عن قصد صاحبه) ما لم يكن الأخذ بالتركيب الأصلي للقضية ممتنعا بقرينة معقولة؟ والحق أن المعتد بهذا الإجراء لا يراه محض مران تحليلي زائد عن الحاجة، بل يلفيه عُدة منهجية ضرورية لمواجهة مشكلات لا سبيل لحلها إلا به، ونذكر منها هنا اثنتين أخريين:

61- Ibid., p. 490

الأولى خلال مناقشة **المشكلة الأنطولوجية**، فربما كان أعسر ما يمكن التعامل معه من الأقوال التخييلية هو تلك التي دعاها جلبرت رايل «أقوالا شبه أنطولوجية Quasi-ontological statements»، تلك التي تثبت الوجود لكيانات تخييلية أو تنفيه عنها، فتضع المرء أمام إحراجات منطقية جمة، لا سيما إن كان يتخذ من موضوعات التخييل موقفا سلبيا (أعني إن كان ينفي عنها الوجود وينكر كونها موضوعات حقيقية). وهذا ما حدا بويلارد كواين إلى الإقرار بأنه في كل خلاف أنطولوجي يعاني صاحب الموقف السلبي من عائق عجزه عن الاعتراف باختلافه مع خصمه؛ إذ لا يستطيع الإقرار بأن هناك أشياء يسلم خصمه بكينونتها بينما هو ينكر عليها ذلك، لأنه في ذلك الإقرار لا بد أن يبدو متناقضا مع رفضه لها، وهذا مأزق حقيقي.[62] خذ مثلا: عندما أقول: «الأبقار اللاحمة غير موجودة» و«شيرلوك هولمز ليس موضوعا»، فقد يبدو القولان لغويين خالصين فاقدين للاتساق ما دام الأول يفترض موضوعا هو **الأبقار اللاحمة** ثم ينفي عنه الوجود، بينما الثاني يفترض موضوعا هو **شيرلوك هولمز**، ولكنه يحمل عليه كونَه ليس موضوعا للحمل، وهكذا يبدو الرافض لموضوعات التخييل كما لو كان عاجزا حتى عن صياغة رفضه في قضايا متسقة. وهنا تكمن قيمة **نظرية الأوصاف** عند راسل وسليلتها **نظرية التعبيرات المضللة منهجيا** عند رايل؛ إذ تكشفان أن التناقض مجرد ظاهر، وأننا نستطيع التعبير عن إنكارنا لموضوعات التخييل في قضايا حاملة لمعنى بلا خيفة سقوط في تناقض، فنقول ببساطة «لا واحد من الأبقار لاحم» و«لا موضوع يدعى شيرلوك هولمز».

أما الحالة الثانية الموجبة لإعادة الصياغة الشارحة للقضية، فهي عندما تكون صورتها النحوية غير مناسبة للواقعة التي تُصورها (أو التي يفترض أنها تصورها)، عندما يوحي تركيبها بتمثيل واقعة غير التي تطابق صورتَها المنطقية، وقتئذ تغدو مضلِّلة misleading وتظهر الحاجة إلى إعادة صياغتها في عبارة تناسب صورتُها النحويةُ الواقعةَ التي تمثلها. وكأن الغاية من هذا الإجراء التحليلي هنا مزدوجة وهي: إظهار الصورة المنطقية الصحيحة للقضية (المتخفية خلف صورتها النحوية المضللة) من جهة، ثم تمثيل الواقعة المفترضة التمثيلَ الأنسب من جهة ثانية.[63] لنأخذ مثلا: إن الواقعة التي يُفترض تمثيلها بالعبارة المضللة «فرانكنشتاين شخصية

62- Quine, On What There Is, op. cit., p. 21

63- Ryle, Systematically Misleading Expressions, op. cit., p. 142-143

تخييلية» هي أن «ماري شيلي كتبت قصة من خيالها وعنونتها بـ **فرانكنشتاين**» أو بعبارة أبسط أن «الكلمة «فرانكنشتاين» ليست اسما لشيء».[64]

وفي الحالتين معا، سواء كان موجب إعادة الصياغة الشارحة هو تلافي تناقض ظاهرٍ من قضية شبه وجودية أو كان هو رفع تضليل عن أخرى تخفي صورتُها النحوية صورتَها المنطقية، فإنه لا يدرك عتبة الوجوب حقا إلا بعلة فلسفية، وهذا ما انتبه إليه جلبرت رايل، فـ«لأهداف فلسفية خالصة نحتاج إلى إعادة صياغة هذه التعبيرات في أخرى تكون صورها التركيبية مناسبة للوقائع التي تشير إليها».[65] أما في الكلام العادي وفي نصوص المبدعين وفي غيرها من الخطابات غير الفلسفية، فلا تكون لنا حاجة إلى ذلك طالما أن كل مُلمّ بمعجم اللغة وبقواعد استعمالها يفهم معاني تلك الجمل بلا شرح ولا معونة فلسفية. فليست القضايا التي نعيد صياغتها خاوية من المعاني بالضرورة، إذ يكون الخلو من المعنى بالافتقار للقيمة الصدقية تماما. كما أنها ليست كاذبة لزاما، إذ الكذب صفة القضية التي لا تمثل واقعة، [66] بل هذه قضايا بمنزلة بقية القضايا، يصدق بعضها ويكذب البعض الآخر، أما تلك التي تصدق فتمثل وقائع حقيقية غير أنها تفعله بصور نحوية غير مناسبة لتلك الوقائع. ومن ثم فـ«المعنى الذي تكون به مضللة ليس هو أنها كاذبة ولا حتى هو أن الكلمات فيها ملتبسة أو غامضة، وإنما فقط هي غير مناسبة صورُها للوقائع التي استُعملت للإشارة إليها، بل تناسب وقائع ذات صور منطقية مختلفة تماما».[67]

ناتج القول، تلتقي المقاربات السابقة (إن استثنينا مقاربة بارسونز) في تناولها للوضع المنطقي للقول التخييلي انطلاقا من مرتكزات أنطولوجية ودلالية خالصة، بغض النظر عن نوع الغطاء الفلسفي الذي استظلت به كل واحدة. وربما كانت نقيصتها المشتركة أنها اختزلت مستويات النص في عتبتين اثنتين، التركيبية والتداولية، غافلة عن ثالثة لا غنى عن الأخذ بها حين تحليل كل نص، وهي العتبة التداولية. ولكن مفاعيل المنعطف التداولي في المنطق وفلسفة اللغة لم تكن لتخطئ أبحاث المعاصرين في قضايا التخييل، وقد لعبت

64- أما داخل النص التخييلي ذاته، عندما تكتب ماري شيلي في روايتها الأشهر «ركضت من هناك بأقصى سرعتي وانكسر قلبي، عرفت حينها أنني لن أستطيع أبدا أن أكون جزءا من أي عائلة، وأدركت أنه لن يقبلني أي شخص في العالم بسبب شكلي القبيح. لا يهم أنني أستطيع القراءة أو الكتابة، ولا يهم أنني أستطيع التفكير أو التحدث عن الفلسفة أو موضوعات عظيمة أخرى؛ سيظل الناس يخشونني دائما. وفي تلك اللحظة امتلأ قلبي كرها لك يا فرانكنشتاين؛ لأنك جئت بي إلى عالم لن يقبلني أبدا». (ماري شيلي، فرانكنشتاين، ترجمة فايقة جرجس حنا، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017، ص ص 48-49)، فإنها تقول كذبا، والقول الكاذب عند رايل هو الذي لا يشير إلى واقعة، إما بأن يثبت لموضوع حقيقي خاصية ليست له أو ينفيها عنه، كأن أقول «أفلاطون هو مؤلف **الإلياذة**»، وإما بأن يثبت لموضوع زائف (أو لا موضوع) خاصية ما أو ينفيها عنه، كقول ماري شيلي أعلاه، إذ يوحي قولها بأنها استعملت اسما لموضوع (هو الوحش فرانكنشتاين) وحملت عليه خصائص (هي أنه فعل كذا وكذا) بينما هي في الحقيقة استعملت اسما زائفا لا يشير إلى شيء وأخبرت عنه، ومن ثم كان خبرها كاذبا لا يشير إلى واقعة. وما ينطبق على جمل هذا المقطع ينطبق على كل الجمل التي تتألف منها رواية ماري شيلي المذكورة، لذلك لا فرق بين قولنا «هناك رواية لماري شيلي بعنوان «فرانكنشتاين»» وقولنا «كتبت ماري شيلي مجموعة من الأكاذيب». يبقى الفرق هو أننا عندما نقول أشياء من هذا القبيل فنحن نقول بالضبط ما نقوله بتلك الجمل المضللة، ولكن الفرق فقط في أن تعبيراتنا الجديدة لا توحي بما توحي به الجمل القديمة المضللة، بأن هناك موضوعا للحمل له صفتي كونه يدعى «فرانكنشتاين» وكونه فعل كذا وكذا، وإنما تُظهر لنا الصورة المنطقية الحقيقية المطابقة لواقعة واحدة هي أن ماري شيلي كتبت مجموعة من الجمل الكاذبة تشغل حيزَ الموضوع فيها أسماءٌ زائفة لا تشير إلى أشياء.

65- Ryle, Systematically Misleading Expressions, op. cit., p. 142-143

66- إما بأن تثبت لموضوع حقيقي خاصية ليست له كأن أقول: «أرسطو هو مؤلف الإلياذة»، أو بأن تثبت لموضوع زائف خاصية ما كأن أقول: «زيوس هو ملك بريطانيا الحالي».

67- Ryle, Systematically Misleading Expressions, op. cit., p. 150

نظريتا كل من ديفيد لويس وجون سيرل في ذلك دور المؤسِّستين، فلم تكتفيا بتعطيل الفصل بين المستويين الدلالي والتداولي عند تحليل القول التخييلي وتقييم قضاياه فحسب، بل زادتا على ذلك جعل التركيب والدلالة فيه تابعين للمقتضيات التداولية المتصلة به. وربما كان ذلك ما ضمن لهاتين النظريتين حاضنة اجتماعية بين الباحثين أوسع نطاقا من كل النظريات الأخرى.

ج- ليس الصدق واحدا!

معتدّا بنظريته في العوالم الممكنة، اقترح ديفيد لويس David Lewis (1941-2001) آلية بسيطة للبت في قضايا التخييل منحرفة عن تقاليد الفلسفة التحليلية في أطوارها الأولى. وإذ أقر بفاعلية مذهب مينونغ غير معترض على النظريات الدلالية التي أُنشئت على أساسه، فقد وجد طريقه صعبا لعديد التعقيدات التي تواجه الآخذ به. ولكن ذلك لم يمنعه من الأخذ بما آلت إليه مقاربة بارسونز خاصة، وهو أنه مهما يكن الخبر في النص التخييلي، فإنه إما يؤول إلى الصدق وإما إلى الكذب، وإما يُقيم في المنطقة المحايدة، غير أنه سلك إلى تلك النتيجة مسلكا مختلفا يشهد على أصالة نظريته والقوة الحجاجية لتحليله، وهو تجاوز ظاهر القضية والنظر إلى عبارتها الحرفية كاختصار لأخرى مستهَلُّها التعبيرُ المستتر «**في النص التخييلي كذا وكذا فإن...**»، يؤخذ كعامل مفهومي intensional operator ضمني ملازم للقضية التخييلية مهما كان مضمونها، مع أننا نسقطه منها بالإضمار، فإننا لا نباشر تأويلها إلا باستحضاره.

باعتماد هذا التحليل يغدو المقطع الأخير من رواية ماري شيلي محض اختصار لآخر يصرح بكامل مضمونه القضوي، وهو «**في رواية فرانكنشتاين لماري شيلي**، كانت آخر كلمات نطق بها المسخ هي: الوداع يا فرانكنشتاين! يمكنك أن تصدقني، سأحفظ وعدي هذه المرة؛ سأترك عالم الأحياء إلى الأبد، لن أرى الشمس ولا النجوم بعد الآن، ولن أسبب لأسرتك أي ألم بعد الآن. آه يا صانعي الحبيب، أعلم أنك لا تستطيع أن تسامحني، لكنك تستطيع الآن على الأقل أن ترقد في سلام». أما إن أخذنا هذا المقطع عاريا على ظاهره، فإننا «ندعه للمصير المشترك بين القضايا الحملية المشتملة على ألفاظ موضوع لا تحيل على أشياء، إما الكذب تلقائيا، وإما الافتقار للقيمة الصدقية».[68]

وعندما نفترض في القضية التخييلية إسباقها بالعامل المذكور، فتلك طريقة أخرى للقول إن «الصدق في التخييل معلق بشرط»[69]، يتمثل دلالياً في **تخصيصِ** مجال القول الذي ينبغي تقييمُ القضية انطلاقا منه ورسمِ

68- David Lewis, “Truth in Fiction”, *American Philosopher Quarterly*, Volume 15, Number 1 (January 1978), 37-46, p. 38

يعني ذلك أننا إن لم نستحضر هذا العامل عند البت في القضايا المؤلف منها النص التخييلي، نكون أمام أحد الخيارين: إما الأخذ بما انتهت إليه نظرية الأوصاف عند راسل والحكم بكذب تلك القضايا، وإما الاصطفاف إلى جانب ما آلت إليه نظرية المعنى والإحالة عند فريجه والحكم بافتقارها إلى القيمة الصدقية.

69- Lewis, Truth in Fiction, op. cit., p. 39

حدوده بحدود نص تخييلي بعينه، ويتمثل أنطولوجياً في مغادرة العالم الواقعي وتحويل اتجاه الإحالة صوب **العوالم الممكنة** التي يُروى أن أحداث هذه القصة أو تلك وقعت فيها. إن «التخييل يتطلب بعض الخروج عن العالم الفعلي actuality»[70]، ومع أن مبدع القصة يتصرف كما لو كان يخبر بوقائع حقيقية يحيط بها علما، فإن مضمون خبره لا يكذب إلا إذا حكمنا عليه انطلاقا من عالمنا، فمن الكذب في هذا العالم أن الاسم «فيكتور فرانكنشتاين» يحيل على أحد ولكنه يصدق **في عالم رواية ماري شيلي** أن هناك عالِما شابا يحمل هذا الاسم وقد صنع مخلوقا بشعا قتله آخر الأمر وبعض أصدقائه.

نكون إذن أمام محددات ثلاثة للصدق في النص التخييلي تبين جميعها أنه «يتوقف على عناصر واقع محتمل»[71]، وهي: أ- تؤول جمل هذا النص إلى الصدق، عندما تؤخذ كاختصارات لأخرى أطول مسبوقة بعامل مفهومي مضمر يحصر مجال تأويلها بحدود النص ذاته. ب- يُعلَّق صدق هذه الجمل بشرط مغادرة العالم الواقعي صوب عوالم ممكنة. ج- تؤول هذه الجمل إلى الكذب عندما تؤخذ عارية على حرفيتها أو يُبتّ فيها بشروط الصدق في العالم الواقعي.

ويتقوم الصدق هاهنا بأربعة عناصر ترسم حدودَ العالم الممكن الذي نحوّل اتجاهَ الإحالة صوبه ونبتُّ في جمل النص انطلاقا منه، أولها **المضمون الصريح للنص التخييلي**: فمن الصدق في رواية فرانكنشتاين أن «فيكتور أحجم في آخر لحظة عن خلق زوجةٍ لمخلوقه البشع القاتل»، ويكفينا صريح الرواية للحكم بصدق هذه القضية دونما حاجة إلى استنتاج أو تخمين، وبالمثل لن ينكر قارئ للنص كذب القول إن «هنري كان سعيدا بوفاة صديقه فيكتور»؛ لأن الرواية المذكورة تصرح بعبارات الأسى التي لفظها الأول في اللحظات الأخيرة من حياة صاحبه وبعدها.

العنصر الثاني هو **خلفية التأويل**: وهي المكونة من مجموع الاعتقادات العلنية التي سادت المجتمع الذي نشأ فيه النص، اعتقادات المؤلف وجمهوره المستهدف من القراء على حد سواء، فضلا عن مجموعة الحقائق الموضوعية التي لم يكن ينكرها أحد في ذلك المجتمع. من ذلك مثلا، أن كل واحد يعرف أين توجد لندن من إنجلترا وأين يوجد شارع بايكر من لندن ولا شيء في قصص شيرلوك هولمز يمدنا بسبب لوضع معرفتنا بجغرافيا هذه المدينة بين قوسين رغم حاجتنا إلى تغيير بعض التفاصيل، كما أن كل واحد منا يعرف أن حضارة لندن وثقافتها اللتين تحيل عليهما روايات دويل أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ليستا هما حضارة أثينا وثقافتها إبان القرن الخامس قبل الميلاد ولا حضارة لندن وثقافتها الحاليتين؛ فلا يفترض أن تشتمل خلفية التأويل على الاعتقاد بأن هولمز كان يتعقب المجرمين باستخدام تقنية نظام التموقع العالمي (GPS) كما لا يصدق بحال من الأحوال أنه استند إلى صور هاتفه المحمول في كشف جريمة أو حل لغز.

70- Ibid., p. 42

71- Ibid., p. 42-43

أما المحدد الثالث للصدق في التخييل، فهو **النسق الداخلي للنص**: فقد نحكم بصدق قضية لا لصريح عبارة في النص ولا لحقيقة موضوعية سادت المجتمع الذي نشأ فيه بادئ الأمر، وإنما فقط لقرينة تؤكدها وهي نسق النص الإبداعي ككل. ففي نسق نص بُنيت حبكته على فكرة أن كل المشاركين في أحداثها ناطقون بالعربية، وقد أورد المؤلف أحاديثهم بهذه اللغة إلا واحدا لم يأت على كلمة له، يكون من الصدق الحكم بأن تلك الشخصية ناطقة بالعربية مثل البقية، فذلك ما يقضي به نسق القصة ككل؛ إذ يحدد عالما ممكنا كل من فيه لسانُه لغة الضاد.

أما المحدد الرابع، فهو **انتقال الصدق من نص إلى آخر**: فقد نحكم بصدق القضية لا لقرينة النسق الداخلي للنص، وإنما قياسا إلى ما يصدق في نصوص تخييلية أخرى تقتسم معه الشخصية الأساسية ذاتها وإن كانت حبكتها مختلفة. فقد أجد في «مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون» خبرا عن قرار شيرلوك هولمز خطبة إحدى النساء تمهيدا لزواجه منها، ومع ذلك يبقى من الصدق أن «شيرلوك هولمز لم يرغب في الزواج يوما ولا تحرك بعاطفته صوب امرأة»؛ لأن قناعته الراسخة التي ترجمتها روايات كونان دويل الأربع وقصصه القصيرة الستة والخمسين جميعا كانت تقضي أن العاطفة تجاه النساء تعيق التفكير المنطقي وهو ما جعله لا يهم بالتفكير في الزواج مطلقا. وهكذا «فإن الصدق ينتقل من نص تخييلي إلى آخر».[72]

إذا توسلنا بهذه المحددات، وبعد أن نحوّل مساق الإحالة من العالم الواقعي صوب العوالم الممكنة التي ترسمها مخيلة المبدع، فإن التحقق من صدق القول التخييلي يغدو مسألة إجراء تجريبي فحسب، غير أن ذلك لا يكون ذا فائدة في الجواب عن إشكاليتنا أعلاه، إلا عندما نهمّ بالبتّ في ما يتألف منه نص المبدع أو في ما نؤلِّفه من قضايا شارحة لمضامينه، ولا يستقيم الأخذ به حيال كل استعمال لأسماء كياناته. فعندما نقول: «شيرلوك هولمز شخصية تخييلية نالت متابعة ثقافية أكبر مما ناله أي محقق آخر، متخيلا كان أم فعليا» أو نقرأ «ترمز شخصية شيرلوك هولمز إلى سعي البشرية المستمر إلى الحقيقة»، لا نفترض أن القول الأول اختصار لآخر هو «في روايات كونان دويل فإن شيرلوك هولمز شخصية تخييلية نالت متابعة ثقافية أكبر مما ناله أي محقق آخر، متخيلا كان أم فعليا»، في هذه الحالة يفشل إجراء ديفيد لويس وتعجز نظريته عن البت في الأقوال المتضمنة لأسماء تخييلية، مثلما تفشل في تقديم معيار واضح يحدد متى يجب (من داخل القول التخييلي ذاته) أن نستحضر العامل المفهومي ونعتبر الجملة التخييلية مسبوقة به خلال التأويل ومتى يجب ألا نفعل ذلك، وهذا ما تترتب عليها مشكلات خلال الاستدلال بجمل من هذا النوع.

ربما نحتاج إلى آلية للبت في الوضع المنطقي للقول التخييلي تُزاوج بين مراعاة المقتضيات التداولية للخبر خلال فعل السرد القصصي من جهة، وبين اعتبار الوظيفة الدلالية للأسماء التخييلية الباقية لها بعيدا عن مَنشئها من جهة ثانية. وإن المرء ليجد في التحليل الذي قدمه جون سيرل جمعا بين الحسنيين، فقد استفاد من

72- Ibid., p. 45

تفاعل المقاربات السابقة في بناء نظرية في «الوضع المنطقي للخطاب التخييلي» صارت بعد حين مرجعا لكل ملتفت إلى هذه المسألة، ويمكننا تقديمها من خلال مفاتيحها الثلاثة الأساسية:

الأول، التمييز بين القول الجدي والقول المشوش: فقد التفت الفيلسوف الأمريكي إلى التخييل بناء على تمييزه المفتاحي بين جنسين من القول هما القول الجدِّي serious statement والقول المشوَّش parasitic statement. فعندما ينشئ المتكلم قضية يبتغي بها الخبر الجدّي عن أمر ما، فإنه ينجز بذلك فعلا تكلُّميا تحكمه بعض القواعد الدلالية والتداولية الخاصة حصرها سيرل في أربع وسماها «قواعد عمودية vertical rules»، وهي: أ- يجب أن يلتزم **بصدق** القضية المعبَّر عنها، وهذه القاعدة الأساسية. ب- يجب أن يلتزم **بالاعتقاد** في صدق القضية المعبَّر عنها، وهذه قاعدة صدق النية. ج- لا بد أن يكون في وضع يسمح له بتقديم **دليل** صدق القضية المعبَّر عنها لو طُلب منه ذلك، وهذه القاعدة التمهيدية. د- يجب أن يفيد المضمون القضوي للخبر علما بجديد.[73] إن هذه بمثابة قواعد تربط الكلمات بالأشياء وتصل القضايا بالوقائع واللغة بالعالم على نحو يُلزم المتكلمَ بالمعاني الحرفية لكل لفظ، فإن لم يلتزم بها وُصف خبره بالمعيب الناقص defective؛ إما لكذب في مضمونه أو في الاعتقاد المرافق له، أو لنقص في الدليل على صدقه، أو لاستغناء عن مضمونه لعلمنا المسبق به.

المفتاح الثاني، **في التمييز بين القواعد العمودية والمواضعات الأفقية:** لا ينجح القول التخييلي في استيفاء أي من هذه الشروط؛ لأنه ليس إخبارا بواقعة (أو وقائع) وإنما **يتظاهر** صاحبه بذلك فحسب؛ يتصرف كما لو كان يخبر بهذه الحقيقة أو يؤكد هذا الأمر محاكيا قصّ القصص ومقلدا سرد الأحداث. وإذ يفعل ذلك، فهو يوقف العمل بالقواعد العمودية المؤسِّسة لفعل الإخبار ويستدعي بدلها مجموعة مواضعات أفقية horizontal conventions تكسر الارتباط بين الكلمات والعالم وتوقف المقتضيات العادية التي تقيمها القواعد العمودية و«تمكن المتكلم من استعمال الكلمات بمعانيها الحرفية دون أن يتحمل الالتزامات التي تقتضيها هذه المعاني في العادة»[74]، ولولا وجودها ما كان للقول التخييلي أن يكون ممكنا بادئ الأمر.

بناء على هذين المفتاحين، وقف سيرل موقفا رافضا للمقاربات التي أدرجت القول التخييلي في خانة الكذب المحض، معتبرا أن الأخير صفة القول الجدي (أو العادي) خاصة، ينتج عن عدم التطابق بين مضمون القول والواقعة التي يروم تصويرها. أما في النص التخييلي، فإننا نعلِّق العمل بقواعد الارتباط بين اللغة والعالم

73- Searle, Expression and meaning, op. cit., p. 62

74- Ibid., 66-67

وهي ليست قواعد معنى، ومن ثم لا تعدِّل دلالة كلمة أو تغيّر معنى جملة أو تعطِّل وظيفة قاعدة نحوية أو غيرها من عناصر اللغة، خاصة وأن مؤلف النص التخييلي يبتغي بكلماته معانيها الحرفية التي يريدها بها من يخبر بحقائق عن العالم الفعلي.

الواقعي **لنوقف التقييم بحدود الصدق والكذب** نتيجة لتعطيل القاعدتين الأوليين (على الأقل) من قواعد الخبر العادي، لذلك كان «التخييل أكثر تعقيدا من الكذب».[75]

أما المفتاح الثالث، فهو **التمييز بين التخييل والكلام عن التخييل**: مثلما ينبغي تبيُّن الحدود بين الكذب والتخييل، يلزم الفصل بين ما يتألف منه النص الإبداعي من جهة وما نقوله نحن عن عناصر هذا النص من جهة ثانية. فإن المؤلِّف لا يقول صدقا ولا كذبا، وإنما **يخلق** موضوعات بما تُصوره مخيلته ويسند لها خصائص ويقيم بينها علاقات بما تخطه يده. إنه لا يصور عالما بل يبدعه، وما أن يفعل ذلك وتنتشر قصته بين القراء، حتى يصبح بمقدورنا **نحن** الإحالة على تلك الموضوعات مع القدرة على تقييم أقوالنا عنها بالصدق أو الكذب بحسب مدى مطابقتها لما بين دفتي الكتاب.

يمكننا تأويل القول: «قتل كونان دويل الدكتور جون واطسون ثم أعاده إلى الحياة ثانية» بإحدى صورتين: لا يمكن أخذه كجزء من التخييل، ومن ثم لا يجوز إلحاق حكمه بحكم القضايا التي تتألف منها نصوص كونان دويل لمجرد تضمنه الاسم «الدكتور جون واطسون». فيبقى إما أن آخذه كقول جدي حول الواقع **فكذب**؛ لأن ما سمي «الدكتور جون واطسون» لم يوجد أبدا، وإما أن آخذه كقول جدي عن التخييل **فيصدق**، بما هو تقرير دقيق لما فعله كونان دويل بشخصية الدكتور جون واطسون في رواياته وقصصه القصيرة عبر سنين. وعندما آخذه كقول عن التخييل، أجده مطابِقا للقواعد المؤسسة للخبر العادي، ويمكنني التحقق من صدقا بالإحالة على روايات كونان دويل؛ وذلك ما لا يمكن لكونان دويل نفسه القيام به خلال فعل السرد. فبينما تخدم روايات الكاتب الاسكتلندي وقصصه القصيرة كماصدق لقضيتي؛ لأني أوجد خارجها، لا يكون لها ذلك بالنسبة إلى أقوال كونان دويل؛ لأنها أجزاء منها، فلا تكون ماصدقا لنفسها.[76]

75- Searle, Expression and meaning, op. cit., p. 67

76- Ibid., p. 73

خاتمة: من الصدق الأنطولوجي إلى الصدق المنطقي

لم يزل النظر في الوضع المنطقي للقول التخييلي ترسم حدودَه أضلاع مثلث لم نألف مغادرته، ومبلغنا من الاختلاف في العادة أن هذا يجعله متساوي الأضلاع وذاك يجعله قائم الزاوية والآخر يجعله متساوي الساقين، ولكن النظر لم يزل محكوما بباعث استيعاب حدوس أساسية نقتسمها بقدر أو بآخر عن العلاقة بين عناصر الثالوث: الأنطولوجيا والمنطق والدلالة.

فذاك الذي ألفى العالم هو الموجود والمخصوص بالوجود ورأى المنطق يملأه، لا ينفك يرى قوانين المنطق قوانينَ وجود قبل أن تكون قوانين لغة أو فكر، لذلك يستحيل عنده المثلث المذكور تأليفا من «**العالم والفكر واللغة**» يملأ المساحة بينها **المنطق**: فالمنطق يملأ العالم، وحدود العالم هي حدود اللغة (أو الدلالة)، واللغة جسم الفكر، والفكر تمثيل للعالم، وكل خروج عن حدود العالم لغو لا يُلتمس منه معنى ولا صدق. ولنا أن نمثِّل صاحبنا هذا ببرتراند راسل أو بلودفيج فتجنشتين أو بويلارد كواين أو بجلبرت رايل أو بغيرهم، على ألا نتوقع منه نظرا في **التخييل** إلا من أجل استبعاده أو اختزاله، فهو الاختلال الذي يهز نظام المثلث.

أما ذاك الذي يفصل بين العالم والوجود أو يضيف إلى عالمنا **هذا** عوالم أخرى، فقد يمدِّد سلطان المنطق ليحكم أرض **الممكنات**، بل وقد يذهب به إلى أقصى مداه ليلامس حدود **المستحيلات**، ولكنه يحتاج وقتئذ إلى بعض التوسيع لقوانين الآلة العتيقة وبعض الانحراف عن مبادئها «**المنحازة**» للموجود والعيني حتى تستوعب اللاموجود، كيانا ممكنا كان أو موضوعا مستحيلا. فهذا يلتمس الإحالة من كل قصدية، ويطلب المعنى من كل تمثيل، وينتظر الصدق أو الكذب من كل قضية، رسما كانت لواقعة أو أثرا لمخيلة، فلا يرى في **التخييل** شذوذا عن طبيعي الكلام ولا تشويشا على منطق الفكر، فلا يلقى داعيا لمغادرة أرض المثلث ما اتسعت الأنطولوجيا لغير الموجود.

ولكن المرء قد لا يكفيه توسيع الأنطولوجيا بهذا النحو ولا يغنيه تمديد مبادئ المنطق ومفاهيمه ولا حتى الانحراف عن بعض قوانينه، فربما يكون النظر الشافي في مشكلات التخييل مشروطا بالتحرر من **كل أنطولوجيا** والقطع مع كل منطق بني على أسس أنطولوجية، وبالمقابل، فقد نكون في حاجة إلى **منطق حر من اعتبارات الوجود واللاوجود** فيما تعلق بحدود اللغة، مفردة كانت أو عامة. ليس يعني ذلك التحرر من الدلالة الماصدقية بالضرورة، بل معناه فقط تحرير معنى «الماصدق» من الدلالة الأنطولوجية. حتى إذا فعل المرء ذلك، فإنه لا يطلب صدقا مشروطا أنطولوجيا وإنما **صدق منطقيا** خالصا من اعتبارات الوجود.

قائمة المصادر:

1- Black, Max. "Vagueness: an exercise in logical analysis". *Philosophy of Science*: Vol. 4, No. 4, (Oct. 1937), 427-455

2- Chisholm, Roderick M. "Beyond Being and nonbeing", *Philosophical Studies* 24 (1973), 245-257

3- Frege, Gottlob. "Sense and Reference", *The Philosophical Review*, Vol. 57, No. 3 (May, 1948), pp. 209-230

4- Goodman, Nelson. "Fiction For Five Fingers", *Philosophy and Literature*, Vol. 6, Nos. 1 and 2 (1982), 162-164

5- Kripke, Saule. *Philosophical Troubles*, Collected Papers, Volume 1. Oxford: Oxford University Press, 2011

6- Lewis, David. "Truth in Fiction", *American Philosopher Quarterly*, Volume 15, Number 1 (January 1978), 37-46

7- Meinong. Alexius. "The theory of objects", (translated by Isaac Levi, D. B. Terrell, and Roderick M. Chisholm), In: *Realism and The Background of Phenomenology*, ed. Chisholm, Roderick M. Illinois: The Free Press of Glencoe, 1960, 76-117

8- Parsons, Terence. "A prolegomenon to Meinongian Semantics", *The Journal of Philosophy*, Vol. 71, No. 16 (Sep. 19, 1974), 561-580

9- _____. "Referring to nonexistent objects", *Theory and Decision* 11 (1979), 95-110

10- _____. "Are there nonexistent objects?", *American Philosophical Quarterly*, Vol. 19, No. 4, October 1982, 365-371

11- _____. "Fregian Theories of Fictional Objects", *Topoi* 1 (1982), 81-87.

12- Priest, Graham. *Creating Non-Existents, Truth in Fiction*, Ed. Franck Lihoreau. Frankfurt, Paris, Lancaster, New Brunswick: Ontos Verlag, 2011

13- Quine, Willard V. "On What There Is", *The Review of Metaphysics*, Vol. 2, No. 5 (Sep., 1948), 21-38

14- Russell, Bertrand. "On Denoting", *Mind, New Series*, Vol. 14, No. 56 (Oct., 1905), 479-493.

15- _____. "Vagueness", *Australasian Journal of Psychology and Philosophy*, vol. 1, no 2 (1923), 84-92

16- _____. *The Philosophy of Logical Atomism*, London and New York: Routledge, 2009

17- Ryle, Gilbert. "Systematically Misleading Expressions", *Proceedings of the Aristotelian Society*, New Series, Vol. 32 (1931 - 1932), pp. 139-170

18- Searle, John R. *Les actes de langage, Essai de philosophie du langage*. traduction de Hélène Pauchard. Paris: Hermann, 1972

19- _____. *Expression and Meaning, Studies in the Theory of Speech Acts*. Cambridge: Cambridge University Press, 1979

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com